الباب الخامس

فى نوادر ملك السباع
ونديمه أمير الثعالب وكبير الضباع

قال الشيخ أبو المحاسن ؛ المرتوى من بحار الحكمة بماء غير آسن : فلما أنهى الحكيم هذا الباب العظيم عن عالم الإنس والشيطان الرجيم ؛ تنبه الملك لغزارة حكمه ، فأفرغ عليه خلع إحسانه وكرمه ، وغمسه فى غدير فضله ونعمه ، ثم أمر أن يقوى الطباع ويذكر نوادر الوحوش والسباع ؛ لتنبسط النفس وترتاض ، وتتحلى بعقود عقيد هذه الأحماض ، فقبل أرض العبودية بشفاه الأدب ، وانتهض لأداء ما عليه من المراسيم وجب .

[٣٢] **وقال** : كان فى بعض الغياض أسد رباض[١] ، عظيم الصورة كريم السريرة والسيرة ، وافى الحشمة عالى الهمة ، كثير الأسماء والألقاب ، عزيز الأصحاب كبير بين الأمراء والحجاب والوزراء والنواب ؛ يُدْعَى فى جوانب مملكته وأطراف ولايته ؛ بحيدرة ، وبيهس ، وضيغم ، والدَوكس، والغضب ، والضرغام ، والعَنْبَسْ ، والطيثار ، والهندس ، الغضنفر ، والهرماس ، والغضبان ، وأبى العباس[٢] ، إلى سائر الأسماء والألقاب ، والكنى وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ، وهو مطاع فى ممالكه وولايته وأقاليمه ، مترشف ثغور الامتثال بشفاه أمثلته ومراسمة .

وكان له من خواص الندماء وكبراء الجلساء نديمان كندمانى جذيمة، يلازمان حضرته ويلجان حريمه ، أحدهما ثعلب يدعى أبو نوفل ، والآخر ضبع يسمى أخا نهشل ؛ طبعهما ظريف وشكلهما لطيف ، ومحاضرتهما مرغوبة وصحبتهما مطلوبة .

وكان فى خدمته دب هو وزيره ومعتمده ومشيره ، كافل أمور مملكته، ومدبر مصالح رعيته ، والملك مفوّض أمور الرعية إليه ، ومعتمد لما يعلم

---

(١) أى ذا عرين ومأوى .

(٢) من أسماء الأسد .

من كفايته عليه ، ومشغول ليلا ونهارا بمعاشرة نديميه فاتسع خيال الوزير ، وأخذ فى مجال التفكير إلى النديمين لكونهما ناصحين قديمين ، ربما يصدر منهما عند الملك ما يَحُطّ منزلته ، ويفسدان للحسد الذى لم يخل منه جسد صولته ، واستحوذ عليه هذا الخيال واتسع فى ميدانه المجال ، فكان خائفا على وظيفته ومنصبه ، مترقبا منهما ما يكون عزله بسببه ؛ فنشأ من ذلك فى خاطره جساوة[1] أو ورثته قساوة ، وجذبته إلى عداوة ، ووقر فى قلبه ذلك، وتأكد وطال عليه من الدهر الأمد ، فكان يترقب لهما الفرص ليوقعهما من الغصص[2] فى قفص ، ويسابقهما قبل انتيابه ويتغدى بهما قبل أن يتعشيا به ، ويقول : لابد من تنظيف الطريق قبل حصول التعويق . وقد أحسن من قال واتقن فى المقال :

وَمَنْ لَمْ يَزح عَنْ دَرْبِهِ الشَوْكِ قَبْل أَنْ ... يطـأهُ فَلاَ يَعْتَب إِذَا شَـاكَ رِجْلَيْـهِ

وأقل الأقسام أن يبعدهما عن حضرة الملك الهمام ، فاتفق أن فى بعض الأسحار تجاذب الملك ونديماه أطراف الأسمار ، فأثر فيهم السهر لطيب السمر فى ضوء القمر ، وحلاوة ما جنوا منه من ثمر عاملين بما قيل :

مَتَى مَا أُصَادِفُ مَنْ أُحِبُّ بخلوةٍ ... أُصَرِحُ بمَا أَرْجوهُ مِنْ متَكَتِّم
يَقُولُ فَأصْغِى أو أبُثُّ فيَنْثَنِى ... ليَستَمِع قَوْلى كالمَشُوق المُتَيَم
أُسامِرُه لا أَنَّ أَمل حديثِهِ ... وآمره كُلّ الأمورِ سِوَى نَمِ

فأخذت الملك عيناه فاستند إلى متكاه ، فانحل من طرفه وكاه[3] ، فلم يتمالك أبو نوفل أن ضحك لما غنت زمارة الملك فتنبه من ضحكه وتعجب

(١) عداوة .
(٢) الغصص ، مفردها غصة : يضيق عليهم .
(٣) الوكاء : رباط السروال وما يشبه رأس القربة . والمعنى : ارتخت أعصابه فأحدث صوتاً من دبره .

من جراءته وفتكه[1] ، ثم استمر متناوما لينظر ما يصدر منهما ، فابتدره أخو نهشل وزجره .

فقال : ويلك ماذا رأيت وأى عجب سمعت ووعيت حتى ترتبك فى الضحك ، أما قرأت وفهمت وسمعت وعلمت أن الضحك بلا سبب من قلة الأدب ، وإن الحشم وسائر الخدم ، ومن نادم الملوك وجالسهم يحترم أمورهم، وبعظم مجالسهم سواء غابوا أو حضروا ، ناموا ، أو سهروا ، قاموا ، أو قعدوا ، استيقظوا ، أو رقدوا ، ، وقد قيل : رفع قلم الحساب والضبط والعتاب عن الصبى والمجنون والعاشق والمفتون ، وكذلك السكران والنائم ؛ لا سيما السهران ، وعُذر النائم يا مسكين أعظم من عذر الباقين ، فإن النوم أخو الموت وفيه ما ليس فى غيره من الفوت ، وقد قال صاحب الشرع : الذى زكا منه الأصل والفرع حفظه الله بجنود الصلاة والسلام وحرسه : ((يعتذر عن النائم العين وكاءالسه))[2] . وقال ذو الصدق والتصديق : ((رفع قلم التكليف عن النائم حتى يفيق))[3] .

وإنما اعتبر الشرع أحوال النيام وساواهم باليقظى ؛ صونا لبعض الأحكام فى نحو من خمس وعشرين مسألة ضبطها من الفقهاء الكملة ولقد طالعت فى كتاب الأخلاق[4] أن الله الكريم الخلاق حيث جعل جنسا من الأمم فى طبائع وصفات متساوى القدم ، فلا يعتب أحد أحدا ولايزدريه ولا ينقم عليه عيبا هو فيه ؛ وعلى الخصوص إذا صدر من الملوك شىء يعاب فلا

---

(١) جرأته .

(٢) وهو معنى حديث :((وكاءالسه العينان فمن نام فليتوضأ)) . جعل اليقظة للاست كالوكاء للقربة ، وهو الخيط الذى يشد به فوها ، والسه : الاست أصلها سته .

(٣) معنى حديث أخرجه الترمذى : كتاب الحدود ، باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد (١٤٢٣) . ولم ترد فيه لفظة (يفيق) وبل (يستيقظ) وأتى بها المؤلف للسجع .

(٤) أى سنن الله فى خلقه .

يحمل ذلك منهم إلا على الفضل والصواب ، وكل ما كان فى غير الملوك معتبة فإنه إذا صدر من الملوك يعد منقبة ، ويجب على من يجالس الملوك وكان له فى خدمتهم سلوك واختص بمحاضرتهم واستعد لمناظرتهم أن لا يبصر منهم إلا المحاسن ، ولا يخبر عنهم إلا بالأحاسن ، وقد قيل : من جالس الملوك بغير أدب حبسه فإنه خاطر بروحه وعرض للبلاء نفسه .

وقال الله الأعظم فى كتابه المحكم لنبيه صلى اللّه عليه وسلم ﴿**فاستقم كما أمرت**﴾ [هود:١١٢] . ولهذا قال عليه السلام : ((شيبتنى هود وأخواتها))[١] . وما ساد العجم والعرب إلا بسلوك طريق الأدب وقال عليه الصلاة والسلام: ((أدبنى ربى فأحسن تأديبى))[٢] .

فقال المغفل أبو نوفل وإذا طهر القلب من الخيانة ، وعاملت اليد بالأمانة ، وتنقى العِرْض من العيوب ، وكان اللسان غير كذوب وزكت النفس بالحلم وعريت عن الجهل بلباس العلم ، يصلح لها أن تسخر بكل أحد وتفخر على أكبر من يكون ولو أنه الأسد :

وَأَنَا إِذَا طَارَ بِهَذهِ الصِفَات طَيْرِى فَلاَ علىَّ إِذَا ضَحِكْتُ عَلَى غَيْرِى

فقال أخو نهشل : لا تقل ذلك ، لاواستعذ بالله من الجهل والخيلاء، واعلم يا ذا الكرامات أن الجاهل يعرف بثلاث علامات ، إحداها يا محبوب : أن يرى نفسه عارية عن العيوب . الثانية يا رفيق الخير : أن يرى نفسه أعلم

---

(١) حديث ذكره المتقى الهندى فى كتابه كنز العمال (٢٥٨٦) وعزاه للطبرانى فى الكبير. وهو حديث ضعيف .

(٢) حديث ذكره العجلونى فى كشف الخفا (٧٠/١) وقال سنده ضعيف جداً ، ولكن معناه صحيح وقال ابن تيمية : لا يعرف له إسناد ثابت . أخرجه أبو داود : كتاب الطهارة ، باب فى الوضوء من النوم (٢٠٣) .

من الغير . الثالثة : أن يرى أنه انتهى فى فنون العلم والنُّهى[1] وبلغ أعلى المراتب ، وهذا أكبر المعايب .

وقالت الحكماء : إذا رأيت نفسك عارية عن العيوب ، وتصديت لتتبع عثرات الناس بالغيوب ، وفتشت عن عيوبهم الجيوب ؛ فأنت حينئذ غارق فى بحر العيوب وبالذى أنت طالبه مطلوب . وانظر يا ذا السكينة ماذا قاله الإمام مالك رضى الله تعالى عنه حبر المدينة ؛ ليكن جل مطلوبك حرصك على تفقد عيوبك ، وقم بذلك عن نفسك وذاتك مقام حسادك ورقبائك وعداتك ، وقال ذو هدى وما قال سدى :

لِكُلِّ فَتًى خَرَجٌ مِنَ العَيْبِ مُمتلىء ... عَلَى كَتِفَيهِ منه وَمِن أَهْل دَهْرِهِ
فَعَيْنُ عُيُوبِ النَّاسِ نُصْبُ عُيُونِهِ ... وَعَيْنُ عُيُوبِ النَّفْسِ مِنْ خَلْفِ ظَهْرِهِ

فقال أبو نوفل : صدقت ونصحت إذا نطقت فجزاك الله عنى خيرا ، ووقاك شرا وضيرا ؛ ولكن يا اخى وَقَعَتْ هفوة على سبيل السهوة ، وحصلت زلة على غفلة ، واللفظ عن غير نظر كالسهم إذا رُمى عن الوتر لا يمكن رده ولا وقوفه وصده كما قيل :

القَوْلُ كاللَّبَنِ المَحْلُوبِ لَيْسَ لَهُ ... رَدٌّ وَكَيْفَ يُرِدُ الحَالِبَ اللَّبَنَا

ولكن الذنب والاجتراء إذا لم يشتهرا لا يتوجه عليهما العتاب ، ولا يستحق مرتكبهما العقاب إذا استغفر وأناب ، وأنا وإن وقع منى الخطا آمن بحمد الله من شر الجزا ومن المؤاخذة بالجريمة ، وإن كانت عاقبتها وخيمة؛ لأنها بينك وبينى ، وأنت بمنزلة روحى وعينى ورفيقى وصاحبى ومراعى حقى وجانبى ، فسرّى عندك مصون وأمرى عن الإشاعة مخزون . وقد قال الحكماء ذوو التجارب : لا تودع السر إلا عند صاحب صدوق صديق ،

---

(١) العقل .

ومحب شفيق . وأنت هو ذاك الموثوق ، فاطرحه من سويداء قلبك فى أسفل الصندوق ، فإن استمر عندك ساكنا صرت من وبال أمره آمنا ، ولا يبعد ذلك من شفقتك وسابق صداقتك ووفائك بالمروة وقيامك بحقوق الأخوة ، وأسأل إحسانك أن تجيب لصاحبك القديم مرجوُّه .

قال أخو نهشل : أعجب لأبى نوفل كيف يغفل ، أما سمعت يا عاقل قول القائل : من علامات الجاهل أن يقرض ماله باللطف ثم يتقاضاه بالفظاظة والعنف ، وأن يودع سره وخفايا أمره عند من يحتاج أن يتضرع إليه ويقسم فى إخفائه واكتتامه عليه ، ثم يحلِّفه أن لا يبديه ولا يذكره لأحد ولا ينهيه . وقد قالت الحكماء : لا تودع أحدا سرا فإن فعلت فاتك السر ؛ لأن كتمانه قَيْد همٍّ وعناء وإبداءه كيد هلاك وبلاء وقد قيل :

وَكُلّ سِـرٍ جَاوَزَ الاثْنَيْنِ شَـــاعَ ... وَكُلّ عِلْمٍ لَيْسَ فِى القُرْطَاسِ ضَـــاع[1]

ولم يقصد بالاثنين إلا الشفتين ، وقال الشاعر :

إذَا ضَاقَ صَدْرُ المَرْءِ عَنْ سِرِّ نَفْسِه ... فَصَدْرُ الّـذى يَسْتَوْدِعُ السِرَّ أَضْيَـقُ

وقال أيضاً :

لا تُودِعَـنَّ ولا الجَمَـاد سَـريرة ... فَمِـنَ الحِجَـارةِ مَـا يُسَـر وَيُنْطَـقُ[2]
وَإِذَا المَحـك أَضَـاع سِر أخٍ لَـهُ ... وَهُـو الجَمَـاد فَمَـنْ بِهِ يَسْـتَوْثِـقُ[3]

وقال أيضاً :

صُـن السِر عَـنْ كُـلّ مُسْـتَخبر ... وَحَـاذِر فَمَـا الحـزم إلاَّ الحَـذَر
أَسِيْـرك سِـرَكَ إنْ صُنْتَـهُ ... وَأَنْـتَ أَسِيْـرٌ لَـهُ إنْ ظَهَـرَ

---

(١) الصحيفة التى يكتب فيها .
(٢) السريرة : السر الذى يكتم .
(٣) المحك : حجر الاختبار .

وكل ما تحرك به اللسان انتشر فى الكون والمكان ، وناهيك يا تامر[1] قضية الحرامى مع الطامر[2] . قال أبو نوفل : كيف تلك يا أخا نهشل ؟

[٣٣] قال : بلغنى أن رجلا من الحرامية واللصوص الكرارية[3] ، كانت نفسه ذات الخيانة تحرضه على الدخول من حواصل الملك إلى الخزانة، وإنها لرؤية الخزانة مشتاقة ، ولمعانقة فاسق التحرم عَشَّاقة ، وكان جاهدا فى أن يعطيها من مناها ما يرضيها ، ولكن كانت نجوم الحراس بالرصد، ولرجوع ذلك الشيطان كل بعد . وكتم ذلك السر عن الإخوان ومضى عليه برهة من الزمان ، وهو يكابد اكتتامه ، ويخاف من السوء ختامه ، والقَدَرُ كائن والكائن حائن ؛ إلى أن طفح عليه ما قصد ، وشلا خمر سره فى قلبه وقذف بالزبد ، فطلب صاحبا يتلفظ به إليه ويعتمد فى اكتتام سره عليه ، واختلا فى حجرته فقرصه برغوث فى حنجرته ، فمد يده إليه وأفشى سره معتمداً عليه ، وقال فى خاطره عند إفشاء سرائره لا لهذا لسان يقدر على البيان ، وعلى تقدير أن لو كان ؛ فهو مثل ولدى تربى من دم كبدى ولحم جسدى واطلع على عورتى ، فلا يقصد عثرتى ولا يكشف سرى ولا يهتك سترى ، ثم أدنى فاه حتى وافاه .

وقال : يا أبا طامر وكاتم السر فى السرائر ؛ إنى عزمت كالمنهمك على الدخول إلى خزائن الملك لاستصفيها وآخذ مافيها ، فاكتم هذا السر عنى وامصص ما شئت من الدم منى ، ثم طرحه فى سراويله واستمر فى نيته على أباطيله .

ثم قصد فى بعض الليالى ما كان يخلو به على التوالى ويرصده فى

---

(١) التامر : كثير التمر .

(٢) البرغوث .

(٣) أى التى تفر وقت الشدة .

المكامن من الدخول إلى الخزائن ، فلاحت له فرصة فانتهزها واستعمل دقائق صنعه وأبرزها ، وانتقل من ذلك إلى المبيت ولطئ[1] تحت سرير الملك كالعفريت ، والملك نائم فوق السرير على فراش الحرير معانق الظبى الغرير[2] ، وخرزة التاج عند رأسه تَقِد[3] كأنها سراج متقد ؛ فقصد اللص أخذها واقتطاعها وفلذها[4] . فأمهل القوم إلى أن استغرقوا فى النوم ، وبينما هو متفكر فما به إذ خرج البرغوث من ثيابه ودخل إلى جسد السلطان ، وقص عليه بلسان القرص كل ما كان من شأن اللص ، فنهض الملك من مرقده فرأى نقطة على جسده ، فطلب النور لينظر الأمور فرأى برغوثا طار ونزل تحت السرير فقصوا أثره على المسير ، فوجدوا الحرامى الكسير فربطوه كالأسير ، ووقع فى الأمر العسير بالأمر اليسير فصار كما قيل :

مَشَى بِرِجْلَيْهِ عَمْداً نَحْو مَصْرَعِهِ لِيَقْضِى اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً

وإنما أوردت هذا المثل ؛ لتعلم يا أبا نوفل أن سرا فى الفؤاد لا يؤمن عليه الجماد ؛ فضلا عن متحرك من حيوان ، ونعوذ بالله إن كان من جنس الإنسان . وقد قيل : للحيطان آذان ، ومن أمثال العجم الأوباش : للديوان أكواش .

فلما انقضى هذا الكلام وكان الأسد قد استوفاه على التمام ، وقد أثار فى أحشائه لهبا ، نهض من مرقده ممتلئاً غضبا ، واستحال وتحرك ، وأمر بأبى نوفل فقبضوا عليه ، ووضعوا الغُلَّ ، فى رقبته والسلاسل فى يديه ورجليه، وأمر إلى السجن برفعه بعد التنكيل به وصفعه ، فتشوّش خاطر صديقه وجليسه ورفيقه . ثم انفض المجلس النظيم ودخل الملك إلى الحريم .

---

(١) لصق بالأرض .

(٢) صغير السن ، الجميل .

(٣) متوهجة .

(٤) قطعها .

فتوجه أخو نهشل إلى السجن المقفل ، ولام صاحبه أبا نوفل وزاد فى التعنيف ، وقال : أيها الأخ الطريف ألم تعلم أن الشخص إذا تكلم يضبط كلامه عليه ، ويعود محصول ما يلفظ به إليه ، وقد قال الرب المجيد ﴿**ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**﴾ [ق:١٨] . وإن كثرة الكلام تضر بالنفس أكثر مما يضر بالبدن الطعام . وكل هذا المصاب إنما جاء من قبل الإعجاب وكثرة الكلام والغرور وعدم التأمل فى عواقب الأمور قال الشاعر :

ما إنْ نَدِمْتَ عَلَى سَكْوتِى مَرَة وَلَقَد نَدِمْتُ عَلَى الكَلَامِ مِرَاراً

قال حكماء الهند، وفضلاء السند : ما دام الكلام فى الفؤاد ولم يبد منه على اللسان باد ، ولم يصب منه سائل حرف فى صدفة الآذان ، أو وعاء الطرف ، فهو كالبنت البكر المشهورة الذكر ، كل أحد يخطبها و يميل إليها ويطلبها ، ويتمنى أن يراها ويرتشف لَمَاها[١] ، فإن ألقى إلى المسامع ووعاه كل ناظر وسامع ، فهو كالعجوز الشوهاء[٢] إذا سلوها وقلوها ، وهى تلازم صباحا ومساء ويفر منها الرجال والنساء ، ويحيد كل أحد عنها ، فإذا تكلمت أسكتت وإذا سلمت أعرض عنها .

وقال بعض الحكماء : اللسان أسد وهو حارس الرأس والجسد ، إن حبسته حرسك ، وإن أطلقته حبسك ، وإن سلطته افترسك . وقالوا : الكلام أسيرك ما لم تُبْدِهِ ،فإن تكلمت به فأنت أسيره . قال بعض الحكماء : أنا على ما لم أقل أقدر منى على ما قلت.

وقال عيسى صلوات الله عليه : العافية عشرة أجزاء ؛ تسعة منها فى الصمت إلا عن ذكر الله ، وواحد منها فى ترك مجالسة السفهاء .

---

(١) اللمى : سواد محبوب فى الشفاه ، المعنى : يقبلها .

(٢) العابسة القبيحة المنظر .

وقال نبى الحرمين ، وإمام الثقلين[1] ، صلوات الله وسلامه عليه : «الصمت حكمة»[2] . وقال عليه الصلاة والسلام: «البلاء موكل بالمنطق»[3].

وقال بعض الحكماء :السكوت يستر عيب الجهل ، ويغظم حرمة الملوك . ولقد آذيت نفسك وتسببت فيما أوجب حبسك ، وأقلقت ودودك ، وأشمت حسودك ، ولقد كانت حصتى من بلائك ومما دهانى من شدة عنائك أعظم من كل حصة ، وقصتى فى ذلك أعجب من كل قصة إذ أنت رفيقى وزميلى وفى حضرة الملك ومنادمته عديلى ، نشأنا على ذلك وسلكنا فى الموافقة والمرافقة أقوم المسالك ، وكنت المرجو لمخافى وإيابى فى مطافى ومشتكى حزنى ومشتفى شجنى ، ومخزن أسرارى وأعظم أستارى وراوية أخبارى فى أحبارى[4] ، وراوية أسفارى فى أسفارى ، ومن أين ألقى مثلك رفيقا أو أجد صديقا شفيقا ، وأنت صاحب السراء ومصاحب الضراء وأنشد :

وَمِنْ أَيْنَ أَلْقَى بَعْدَ سَبْعِينَ حُجَّةً ... رَفِيقاً كَمَن أَرْضَعْتُهُ قهوة الصِّبَا[5]
أَدِيْبَاً أَرِيْبَاً لَمْ أَمِل مَقَامِهِ ... وَلاَ مَلَنِى يَوْمَاً حَكِيْمَاً مُهَذَّبَاً

ويعز على ويعظم لدى أن أراك فى هذه الحالة ، ثم أجرى سحائب دموعه الهطالة ، وقال :

وَمَا عَلَى الحُرِّ أَنْكَى أَنْ يرى حَزَنَاً ... فِى مِحْنَةٍ ضَاقَ عَنْهَا دُونَهُ الحِيَلُ

---

(١) الإنس والجن .

(٢) انظر كشف الخفا للعجلونى (٣٢/٢) وعزاه للبيهقى فى الشعب عن أنس ، بسند ضعيف . قال : والصحيح رواية ثابت عن أنس : أن لقمان قال ذلك ، ولذا أخرجه ابن حبان فى روضة العقلاء بسند صحيح .

(٣) الحديث ذكره صاحب كشف الخفا (٢٩٠/١) وقال عنه صاحب المقاصد : موضع .

(٤) أى ما يحبر ويكتب فيه .

(٥) القهوة : الخمر .

ولقد تحيرت فى هذا الأمر المهول ، وما أدرى قصاراه إلى ماذا يؤول، وليلة الغم الصراح عماذا يسفر فيها الصباح ؛ فأنكئ لذلك أبو نوفل وبكى وتضرع إلى الله وشكا ، وقال : يا أعز الأصحاب وأحب الأحباب لقد أثر عندى ما قلت من الكلام أكثر مما أصابنى من الآلام ، كيف يغتفر لأحد الجانبين ويطلق أحد القيدين ، وأنّى يُعتذر بالقضاء والقدر لإحدى الغصتين، وهل شىء فى عالم الكون والفساد جاء خارجا عما قدره الله وأراد ، وكلنا فى هذا سوية والعبد مقهور مع المنية ، ولكن الجَدَّ إذ أقبل ولاحظ بسعده وتفضل ؛ فكل حركة تصدر من الغبى العاجز يعجز عن مقاومتها البطل المبارز ، وكل قول يتفوّه به الجاهل يدع دليل معانيه أدلة العقلاء فى مجاهل ومذاهل ، ودعاميص[1] ذوى الآراء المنضبطة المناهل تلقى من عقنقل الحيرة[2] فى مجاهلها مناهل فيصير كل وجه إليها مائل ، وكل إنسان بها قائل وقوام كل سعد وقبول إليها قابل كما قيل :

وإذَا السعادةُ لاحظتكَ عيُونَها ... نِمْ فَالمَخَاوف كُلُّهنَّ أمَان
وَاصْطَد بِهَا العنقاءَ فَهى حَبَائل ... وَاقْتَد بِهَا الجَوْزَاءَ فهى عِنَان[3]

ونعوذ بالله من ليل السعد إذا أدبر وصبح الخمول إذا أسفر ، فإن اللبيب إذ ذاك يخطئ ما كان يصيب ويفعل العاقل مالا يرتضيه بَاقِل[4] فيكون جهد النفس زيادة فى العكس :

---

(١) زوار الملوك .

(٢) أى من شدة الحيرة وكثرتها .

(٣) العنقاء : طائر معروف الاسم مجهول الجسم لم يوجد .والجوزاء : أحد أبراج السماء. والمعنى: أنه إذا حالفه الحظ سهل له كل شىء حتى اصطياد العنقاء ، وقياد الجوزاء.

(٤) الباقل : هو مثل يضرب لرجلٍ اشترى ظبية بأحد عشر درهما فسأل عن شرائه ، ففتح كفيه وأخرج لسانه يشير إلى ثمنه فانفلت ، فضرب به المثل فى العى ، أى الحمق .

وَإِذَا تَوَلى الجدُّ يَحْتَاج الذَكـــى فِى رأيِهِ قَبْل الزَوال مرَاحـــاً

وانقلاب الدهر وانعكاس الزمان شيمة معهـودة وخصلـة معدودة ، كمـا قيل:

وَمَنْ ذَا الّذى ما غرَّه صَرْفُ دَهْرِهِ فأضْحَكـه يَوْماً وَلَمْ يَبْكِـهِ سِنَه

وأنا كنت غافلا وإن لم أكن جـاهلا ، وقد يكـون الشـخص عمـا تحققـه ذاهلا ؛ وذلك لما كان عوّدنى الزمان وألفته من سالف الدوران وإرخاء العنان ونيل الأمانى والأمان ، وإسبال ذيل النعم والإحسـان الدائم والكـرم ، فمشيت علـى مـا كنـت أعهده وفـى نفسـى أجده ، وأيضـا كـانت لـذة عشـرتك ونعيـم صحبتك وحسن موافقتك وعز مرافقتـك أنسـانى كـل بليـة ، وأمنـت بذلـك كـل رزية ، فألهانى عن التنكد ودهتنى غفلة عن التوزع والتبدد ، مثل مـا أصـاب ذلك الهدهد ، قال أخو نهشل : أسرد ذلك المثل :

[٣٤] **فقال** : ذكروا إن الله مجرى الخـير علم بعض عبيده الصلحـاء منطق الطير ، فصاحب منها هدهدا وازداد ما بينهما تودداً ، ففى بعض الأيـام مر بالهدهد ذلك الإمام ، وهو فى مكان عال ملتفت إلـى ناحيـة الشـمال وهـو مشغول ، بالتسبيح يسبح الله بلسانه الفصيح ، فناداه يا صـاحب التـاج والقبـاء والديباج لا تقعد فى هذا المكان ، فإنه طريـق كـل فتـان ومطـروق كـل صـائد شيطان ، ومقعد أرباب البنادق ومرصد أصحاب الجلاهق[1] .

فقال الهدهد : إنى عرفت ذلك وإنه مسلك المهالك .

قال : فلأى شىء عزمت على القعود فيه مع علمك بما فيه من دواهيه.

---

(١) الجلاهق : جسم صغير كروى من طين أو رصاص يُرمى بـه ، وهـى أيضـاً القوس التى يُرمى بها البندق .

قال : أرى صبيا وأظنه غويا نصب لى فخاً يروم لى فيه زخا[1] ، وقد وقفت على مكايده ومناصب مصايده ، وعرفت مكيدته أين هى وإلى مذا تنتهى ، وأنا أتفرج عليه وأتقدم بالضحك إليه ، وأتعجب من تضييع أوقاته وتعطيل ساعاته فيما لا يعود عليه منه نفع ولا يفيده فى قفاه سوى الصفع ، وأسخر من حركاته وأنبه من يمر على خزعبلاته ، فتركه الرجل وذهب وقضى حاجاته وانقلب فرأى الهدهد فى يد الصبى يلعب به لعب الخلى بالشجى[2] ولسان حاله يلهج بمقاله :

كعصفورة فى يد طِفْل يُبِينَهـا ... تَقاسى حِيَاض الموتِ وَالطفل يَلعبُ
فلا الطفل ذُو عَقْلٍ يَرق لِحَالِهـا ... وَلاَ الطَيْرُ مَطْلوق الجِنَاحَ فَيَهْرَبُ

فناداه وقال : يا أبا عباد كيف وقعت فى شرك الصياد ، وقلت لى إنك وعيت ورأيت ما رأيت .

فقال : أما سمعت أن الهدهد إذا نقر الأرض يعرف مسافة ما بينه وبين الماء ، ولا يبصر شعرة الفخ ؛ وذلك لينفذ ما كتبه الله تعالى وقدره من قضائه وقدره ، وناهيك فى قضية القضاء والقدر قضية آدم أبى البشر مع موسى الكليم عليهما الصلاة والتسليم لما جرت عليه أحكام القضاء والقدر[3] فتمت مشيئة الله تعالى السابقة فى علمه ، وجرى مالم تدركه عقول الفحول فى ميدان إرادته من سوابق حكمه وحكمته وأنشد الهدهد :

---

(١) أى يريد لى المكيدة أو الوقوع فى الشَرَك .

(٢) الخلىّ : الخالى من الهم والحَزَن . والشجىّ : المهموم .

(٣) إشارة إلى حديث (حج آدم وموسى) وهو حديث أخرجه البخارى : كتاب التفسير ، باب (٣) (٤٧٣٨) ولفظه عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : ((حاج آدم موسى وقال له : أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم . قال آدم : يا موسى أنت اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، أتلومنى على أمر كتبه علىّ قبل أن يخلقنى . قال رسول الله ﷺ فحاج آدم موسى)) .

يَـــا سَـــائِلِى عَمَّـــا جَـــرَى وَالعَيْـــنُ مُبْصِـــرَةُ القَـــدر
أَو مَـــا سَمِعْـــتَ بِـــأَنَّ إذا جَاءَ القضا عُمِـــىَ البَصَـــر

وقال أيضا :

إِنْ كُنْتَ أَخْطَأْتَ فَمَا أَخطأ القَدر إِنَّ القَضَاءَ إِنْ أَتَى يُعْمِى البَصَر

واسمع أيها العاقل قول القائل:

إِذَا أَرَادَ اللَّـــهُ أَمـــرا لامـــرىء وَكَـــانَ ذَا عَقْـــل وَسَـــمْع وَبَصـــر
وَحِيلَـــةٌ يَفْعلهـــا فِـــى دَفْـــع مـــا يَـأتِى بِـهِ محتوم أَسْـبَاب القَـدر
أَصَـــمَّ أُذَنَيْـــهِ وَأَعْمَـــى قَلْبَـــه وسُـــلَّ منـــه عقلـــه سَـــلَّ الشَّـــعْر
فَلاَ تَقُلْ فِيما جَرَى كَيْفَ جَـــرَى فَكُلُّ شَـــىءٍ بِقَضَـــاءٍ وَقَـــدر

وأنا لما اغتررت بحدة بصرى ذهلت عما يجول فى فكرى ، فتغطت حدة استبصارى فوقعت فى فخ اغترارى ، أما سمعت يا همام قول الإمام : إذا حلت المقادير ضلت التدابير ، ثم قال أبو نوفل وقد أثر فيه كلام أخى نهشل :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء ودَاوِنِى بالتى كانت هـــى الـداء

وإنما أوردت هذه الحكاية ؛ لتخفف عنى مافى تقريعك وتوبيخك من نكاية ، وتعلم أن الأمور كلها جلها وقلها جارية على وفق ما قضاه الله تعالى وقدره ، وأثبته فى سابق علمه فى اللوح المحفوظ وسطره ، وإن كانت الأحكام فى هذا الباب تضاف إلى العلل والأسباب ، ولا شك فى هذا ولا ارتياب ، فقد مر أن الذهول شغلنى عن الفضل بالفضول ، وإن العذر غير مقبول ، فإن الجهل لا يكون حجة ولا مخلص لسالك لأسوأ المَحَجَّة[1] ، وقد طال الكلام والحق بيدك والسلام .

---

(١) جادة الطريق .

وأما الآن فجُلُّ المقصود من لطفك المعهود ، وبذل المجهود وتذكر سابق العهود ، وقديم الصداقة وأكيد المحبة والعلاقة عطف الخواطر الملكية ، ورجوعها على ما كانت عليه من الصدقات السنية والعواطف الملوكية ، وأقل الأقسام ؛ الخلاص من هذه البلية ، وعلمك قد أحاط بأوثق مناط[1] أنى شخص وحيد بين ملازمى الخدمة فريد ، لم يكن لى أخ سواك وأنت مشتكاى وأنا مشتكاك ، وهذا أوان الفتوة وزمان المروّة ، وعدم التخلى عن الإخوان، والانبعاث بالهمة الثابتة الأركان ، والسعى فى خلاص الصاحب القديم من هذا البلاء العظيم ، وأسألك بسالف الخدمة والمودة ذات القِدمةْ أن لا تذكر ما سلف من التقصير الموجب للتلف فإنّى معترف أنى للذنب مقترف وأنشد :

جَاوَزْتَ فِى اللَوْمِ حداً قد أضَر به ... مِنْ حيْثُ قَدرتَ أنَّ اللَوْمَ يَنفَعَه

وإنى إذا تفكرت وتصورت ما وقع إذا تذكرت ، وإن كان قد مضى يضيق بى الغضا[2] ، وأغرق فى عَرَق الحيا وتسود فى عينى الدنيا ، فكأنه فى هذا القبيل عنى قيل :

كأنَّ فُؤَادِى فِى مخالبِ طائر ... إذَا مَا ذَكَرْتُ الحُبَّ يَشْتَد بِى قَبضا

وهذا القدر من الإعلان يكفى ، وإنى أستحلى إذا مر بخاطرى غصص حتفى ، ثم علا زفيره وشهيقه ، وبدا من لهيب قلبه بريقه ، ومن وادى دمعه عقيقه[3] ؛ حتى خيف عليه غريقه وحريقه ، ورق له عدوه وصديقه وبكى لبكائه رفيقه .

قال أخو نهشل : اعلم أيها الأخ المفضل أنى لم أقل ذاك الكلام للعدوان

---

(١) المناط : اسم موضع التعليق . وبأوثق مناط أى إلى أبعد حد .

(٢) أى يضيق علىّ الظلام .

(٣) أى الدمع يسيل من العين .

والملام ؛ فضلا عن إيحاش قلب وإيلام ؛ ولكن لما تألم جَنَـانى[1] أجرى الله ذلك على لسانى ، ولم يكن لذلك الحديث باعث ولا قصد عابث أو عـائث[2] ؛ ولكن صفو المحبة ووفور الصدق أوجبا التلفظ بذلك النطق ، وكيف لا أدرك دقائق المعانى وأنا لها من ثمار فصائلك جانى ، وأما بذل الاجتهاد من أهل الوداد فهل يخطر ببالك غير ذلك ، ويأبى الله والأخلاق الكريمة وما علمته من همة وشيمة ، وفواضل فضائل من موانح خصائلك اقتبستها ومطارف معارف على منوال سجاياك نسجتها ، أن أتخلف عن التعلق بأهدابها وأغلق أبواب مقاصدها فى وجوه طلابها . وأنا إن لم أبذل مجهودى وأصرف موجودى فى مساعدة خلى وصديقى وصاحبى ورفيقى ، بما تقتضيه المروأة والفتوة والصداقة القديمة والأخوة ، وإلا فأى فائدة فى وجودى لوالدى ومولودى وطارفى وتليدى وصديقى وودودى .

وقد قيل : أربعة أشياء فرض عين[3] فى شريعة المروأة على المحبين وكذلك الأخوان وسائر الأصحاب والخلان .

الأول : المشاركة فى النوائب وتعاطى دفعها من كل جانب .

الثانى : إذا ضل أحدهم عن طريق السداد يردونه إلى سبيل الرشاد ولا يتركونه على غير الصواب بل يستلطفونه بألطف خطاب .

الثالث : إذا صدر من أحدهم نوع جفاء يلاقونه بالوفاء والصفاء ، ولا يتركونه على شفا ، ولا ينسون الوفاء القديم بالجفاء الحادث ، فربما يتفرع على ذلك ما يؤكده من العوائث .

---

(١) قلبى .

(٢) فاسد .

(٣) أى واجبة على كل أحد .

الرابع : لا يؤاخذون المقصر فى حال الغضب ، بل يرجئون عقوبته إلى أن يطفأ اللهب ؛ فربما يتعدى بواسطة الغضب الحد ؛ فيقع بسبب ذلك بين الأصحاب نكد .

ثم إن أبا نوفل قال لأخى نهشل : المبادرة أولى إلى التلافى ؛ لئلا يسابق الجنود إلى تلاقى ، وهذا المصاب إنما جاء بغتة ، وأخذ قلوبنا وأسماعنا بهته ، فاستعمل فكرك القويم وتوجه إلى التدارك بقلب سليم .

فقال : ها أنا أذهب على الفور لهذا المطلب النافع وأقوى العزيمة واجتهد فى دفع الموانع ، فأول ما ابتدئ بقصد الملك ، وانظر ما يصدر منه قولا وفعلا فى هذا الأمر المشتبك ، فأبنى على ذلك ما يناسبه وأجاريه فيما يميل إليه خاطره ولا أجاذبه .

ثم توجه إلى الأسد ودخل عليه فوجد الدب جالسا بين يديه ، وقد بلغه قضية النديم ، وأنه حل به العذاب الأليم ، فاغتنم الفرصة ، وبادر ليتم على أبى نوفل الغصة ويتعاطى فى أمره قصة وحصة ، فأراد أخو نهشل أن يفتتح الكلام ، ثم أفكر فى أنه ربما يعاكسه الدب فى المرام ، وإنه إذا قام فى المناقضة لا يمكنه مقابلته بالمعارضة ، وإن سكت فالسكوت رضا ، وإن وافق فعلى غير مراده مضى فأمسك عن الكلام ؛ ورأى السكوت مقتضى المقام . ثم أمعن النظر وأجال قداح الفكر فرأى أنه إن انفصل المجلس من غير أن يفصح بشىء وينبس ، ربما يفوت المقصود أو يسابقه بالمعاكسة عدو أو حسود ؛ لا سيما مثل الوزير الرفيع الخطير صاحب الرأى والتدبير وهو عدو قديم ، وفى طرق الخزى نظيره عديم ، فإذا بادر الملك بالكلام ربما يقع منه فلتة بمقام كما قيل :

أَتَانِى هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا

فتلقاه الملك بقبول ، فيصول كما يختار فى ميدان الفتك ويجول ، فتنعقد الأمور وتتقصد وتتعقف[1] الأخلاق الأسدية وتتعرد[2] ، فرأى الأولى المبادرة بالكلام والوقوف فى مقام الشفاعة أنسب بالمقام فإن عارض أحد عرف أن جوهر كلامه عرض ولا تصدى إلا لغرض . وكان الملك قد سمع كلامه بعد معرفة سلامته وإلقائه على أبى نوفل عذله وملامه ، وكلامه بلا شك مقبول ومالأحد عنه عدول .

وكان الدب منتظرا خروجه من عند الملك حتى يختلى بالكلام معه وينهمك ؛ فأدرك أخو نهشل هذا المرام ، فوقف فى مقام الدعاء وبادر بالكلام، ثم قال بعد وظائف الدعاء والقيام بما يجب من مراسيم الثناء العلوم الشريفة والآراء المنيفة محيطة ؛ إن من عادة الملوك العظام وأخلاق السلاطين الكرام العفو عن الجرائم ، والإغضاء عن العظائم ؛ لا سيما إذا صدر ذلك من أحد المخلصين والعبيد المتخلصين على سبيل السهو والخطأ لا على سبيل العمد والاجترا

مَنْ ذَا الّذى مَا سَاءَ قَط وَمَنْ لَهُ الحُسْنَى فَقَط

وإن العبد الأقل أبا نوفل ، الواقع فى الخطر الخطير ، المعترف بالذنب والتقصير ؛ متوقع غفرها من صدقات الحضرة الملوكية ومراحمها وما اعتاده من حلمها الشامل ومكارمها ، ومحتم على الملوك القيام بقبول الشفاعة دون سائر الخدم والجماعة ؛ خصوصا وقد كان رفيقا نديما ومصاحبا قديما ، ولا يقصد المملوك بذلك إلا سوق الحسنات الكثيفة إلى دفاتر الصدقات الشريفة، وقصد الخير وذهاب الأسى والضير ، وانتشار صيتها فى الآفاق والأطراف بالعلم والحلم والعفو والصفح والفضل والعدل والألطاف ؛ فلان الأسد من هذا

(١) تنعطف وتعوج .
(٢) تقسو وتشتد .

الخطاب وعرف أن قصد الشافع من هذا إنما هو الثواب والصواب ، فأطرق مليا ولم يجرمن الأجوبة شيئاً ؛ فتأثر الدب الخبيث والعدو القديم لهذا الحديث، وخاف أن يكون السكوت علامة الرضا وإن هو رضى يفوت منه المنى، والإطراق علامة الحلم والسكوت فى الحرب دليل السلم ، ومن فوّت الفرصة وقع فى غصة ، ومتى يقع أبو نوفل المختال فى مثل هذا العقال ، وما أظرف مقال من قال :

وإنْ رَأَيْتَ غُرَاب البَيْن فِى شِرَكٍ فَاذْبَح وَكُل وَذر الأَفْرَاخ فِى عُنُقِى

وقد قيل :

إذَا صَارتْ الأعداءُ نملاً فَإنَهم إذَا لَمْ تطأهم أَصْبَحُوا مِثْلَ ثُعبان

وَكَمْ ذَا يُقَاسِى مِن أَذَاهُ وقرصهُ عَلى ضَعْفِهِ إنْ صَار دَاخل آذان

فانبرى وانبرم وتصدى للمعاكسة ذلك البرم[1] ، وغطى دسائس لؤمه بنقوش الكرم ، وقال : اعلم أيها النديم القديم ومن هو للملك أوفى خديم ؛ إن الواجب على جميع الخدام أن يكونوا فى الصدق متساوى الأقدام ، ولا يقدموا على نصح الملك غرضا ، ولا يطلبوا سوى رضاه على النصيحة عرضا ، ولا عوضا ، فلا يصادقوا الخائن ولا يصدقوا المائن[2] ، ولا يواطؤا الخاطى ولا المذنب المتعاطى ولو بالكلام الواطى ، ولا يخفوا الخيانة والجناية ولا يرعوا فى ذلك أدنى الرعاية ، فمساعد السارق سارق ومعاضد المارق مارق، والقيام مع الجانى جناية وإخفاء الخيانة نكاية وفى هذا الكلام كفاية ، ومن اعتذر من جناية جان ؛ لا سيما إن كانت فى حق ملك أو سلطان فهو شريك فيها بل أعظم جرماً من متعاطيها ؛ لأن أعظم الجناية ياذا الدراية إنما هو بحسب المجنى عليه ، وإن ذلك لَوَهَنٌ عائد إليه لا على مقدار الجانى ، وأنت

(١) اللئيم .

(٢) الكاذب .

لا تجهل هذه المعانى ؛ ولهذا قال بعض أهل الأفضال : إن تعاطى الفساد ياذا الرشاد ليس فيه صغيرة ، وإن كل ما يخالف الأمر كبيرة وذلك بالنظر إلى الجناب الأقدس القاهر تعالى وتقدس .

فقال أخو نهشل : كلام مولانا الوزير هو المفضل وما أشار به هو الصواب المعدل ، ولكن يا مولانا الوزير علمك الخطير خبير بأننا كلنا محل الخطأ والتقصير ، ولا يسع الكبير منا والصغير إلا الحلم الغزير والعفو عن كثير ، وقل لى من هو البرىء عن الهفوة ، والذى لا يتوقع من مولانا الملك عفوه ، وإن لم تقع الشفاعة فى الجانى وذى الخلاعة ومخالف سنة الجماعة، فالمحسن لا يحتاج إلى شفاعة ، ومن لم يجبر المكسور ويأخذ بيد المحقور ، فما يجد عند انكساره جابرا ولا يؤخذ بيده حين يصير عاثرا ، وقد قيل من مثلك الفضيل وصاحب الأدب الجزيل :

إذا أصبَحْتَ فِيْنَا ذَا اقْتِدار ... وأمرُكَ فى رقابِ الخَلْق جارى
أَقِلْ وَأَقْبَلْ عثاراً واعتذاراً ... فَمَنْ يُقِلْ عِنْدَ العِثَار
فَمَا زال الصِغَار تروم عفواً ... وَغُفْرانُ الكبائرِ مِنْ كِبَارِ

وأحسن العفو يا ذا السلوك عفو السلاطين والملوك ؛ لا سيما إذا عظم الجرم وكبر الإثم ، فإن العفو إذ ذاك صادر من ملك ذى سلطان قادر مع قوّة الباعث على المؤاخذة والقدر الشاملة النافذة وغير الملوك من العاجز والصعلوك عفوهم ، إنما هو عجز خشية أو لتمشية غرض مشية ، والملوك إنما يؤثر عنهم الخلال الحميدة والخصال الشريفة السعيدة ، والأكابر يعفون والأصاغر يهفون[1] .

وقد قسم الحكماء والحكام ما يقع من الذنب والآثام أربعة أقسام ، فاسمع

---

(١) هفا الرجل : زلّ ووقع فى الخطأ .

يا كبير : هفوة ، وتقصير ، وخيانة ، ومكروه . وحرروا ذلك وضبطوه، وذكروا لكل جزاء قروره ؛ فجزاء الهفوة العتاب وبه نطق الكتاب . وجزاء التقصير الملامة على ما أورث من ندامة . وجزاء الخيانة العقوبة ، فإن فى ارتكابها للعاقل صعوبة وأعظِم بعقابها مثوبة ، وما يرتكب المكروه إلا الغافل المعتوه ، وجزاؤه أيضا بمثله وهذا على مقتضى العقل وعدله .

والذى صدر فى سابق القدر من المخلص أبى نوفل إنما هى هفوة بها زلٌ ، وجزاؤه على هذا الحساب إنما هو العقاب وقد استوفاه ، وزيادة وفى هذا لمولانا الملك الإرادة ، فإن شاء عاقب على الذنب الصغير ، وإن شاء عفا عن الجرم الكبير ، والهفوة لا يكاد يسلم منها الخواص ؛ فضلا عمن هو فى شرك العبودية والاقتناص ، ولأن يؤثر الفضل عن الملك وعلى طريق عفوه يسلك الدرب المستلك ، خير من أن يؤثر عنه لنفسه الانتقام ويخلد ذلك على صفحات الأيام ، ولا شك أن سيرة العفو والفضل أفضل من القصاص والعدل، وذلك هو اللائق بالحشمة ، والأوثق للحرمة ، والأجدر لناموس السلطنة، والأبقى على ممر الدهور والأزمنة .

وقد قال سيد المرسلين وحبيب العالمين : ((ينادى مناد يوم القيامة من كان له عند الله يد فليقم فلا يقوم إلا من عفا))[1] . وقال رسول الله ﷺ : ((إن العفو لا يزيد العبد إلا عزا فاعفوا يعزكم الله))[2] .

ولقد كان جماعة من عظماء الملوك والأكابر يبحثون عمن تعاطى

---

(١) الحديث ذكره المتقى الهندى فى كتاب كنز العمال (٧٠٢٤) وعزاه للحاكم فى المستدرك .

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم : كتاب البر والصلة ، باب استحباب العفو والتواضع (٧٠) بلفظ : ((ما نقصت صدقة من مال ومازاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً وما تواضع أحد إلا رفعه)) .

الذنوب والإجرام من الأصاغر ؛ لاسيما لمن يتعرض لذات الملك ونفسه، ويستعين بطوائف على فساده من أبناء جنسه ، فإذا قدروا عليهم عفوا وتلذذوا بالعفو والإحسان واستعفوا ؛ وحسبك يا أبا جهينة ومن فضله أعذب مزينة واقعة ابن سليمان ، المخلدة على ممر الأزمان وماتضمنت من مكارم الأخلاق التى تعطرت بها الآفاق . فتوجه الأسد إليه ومال ، وقال أخبرنا يا أخا نهشل كيف كان هذا المثال .

[٣٥] **قال** : لما انتهت أيام بنى أمية ، وتطرزت خلع الأيام بأعلام الدولة العباسية ، وأشرق بطلعة أبى العباس السفاح[١] فى دياجير الدهر[٢] أيمن صباح بأحسن فلاح ؛ اختفت نجوم أفلاك بنى أمية وكواكب من بقى من تلك الزواهر المضية وكان منهم إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك بن مروان، وجعل السفاح يتطلبهم ويرغب من يدرى بهم ويرهبهم ، إلى أن ظهر ابن سليمان وكان من أمره ما كان ، فحكى أنه كان بالحيرة[٣] مختفيا فى هم وحيرة .

قال : ففى بعض الأيام تراءت لى على سطح سواد أعلام فوقع فى نفسى وغلب على حدسى أنها قد جاءت لطلبى ؛ راغبة فى عطبى ، فتنكرت فى الحال واختفيت وخرجت من الحيرة إلى الكوفة[٤] أتيت ، فدخلتها خائفا أترقب ، ولم يكن لى فيها مترصد ، ولا مترقب ولا صديق أركن إليه ، ولا صاحب أعول عليه فصرت فى تلك البلاد مثل المنشد ببغداد :

---

(١) أبو العباس السفاح ؛ عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب ، أول الخلفاء للدولة العباسية وأحد الجبارين الدهاة من ملوك العرب ، بويع له بالخلافة جهراً بالكوفة (١٣٢هـ) تاريخ الطبرى (١٥٤/٩) .

(٢) أى نوائبه وظلماته .

(٣) الحيرة : مدينة بالعراق بين الكوفة والنجف .معجم البلدان (٤٠٦٩) .

(٤) الكوفة : مدينة بالعراق أسسها سعد بن أبى وقاص بعد معركة القادسية . معجم البلدان (١٠٤٧٣)

بَغْداد دَارٌ لأَهْـل المَـال مُنَعمـة وللمَفَالِيس دَار الضَنْـكِ وَالضيْـق
ظَلَلتُ حَيْرَان أَمْشِي فِي أَزقتـها كَأَننَى مُصحف فِي بَيْتِ زِنْديـق

فأدانى المسير إلى باب كبير منظره جليل وداخله دهليز طويل ليس فيه أحد من الحجاب والرصد ، فدخلت إليه وبه مكان فجلست عليه ؛ وإذا برجل جسيم جميل الشكل وسيم على فرس جواد مع طائفة من الأجناد ، فدخل إلى دهليز الباب وفى خدمته غلمانه والأصحاب ، إلى أن نزل عن دابته وانفرد عن جماعته . فلما رآنى فى وجيف ووجل ، قال : من الرجل ؟ فقلت : خلاك الذم مختفٍ على دم[1] ، واستجرت بجوارك ، ونزلت فى ديارك .

فقال : أجارك الله ، لا تخف من سواه ، ثم أدخلنى فى حجرة لطيفة تشتمل على أشياء ظريفة قد جعلها مضيفة ينزلها كل من قصده جهله أو عرفه . فمكثت عنده حولا أصول فى نعمه صولا ، ولا يسألنى فعلا ولا قولا؛ بل كان يركب من الأسحار وينزل إذا انتصف النهار ، وذلك كل يوم لا تأخذه عن ذلك سنة ولا نوم . فمألته فى بعض الأيام ونحن فى أهنى مقام ، وقد صرت عيبة[2] سره ، ومرآة قلبه وصدره عن ركوبه ونزوله وموجب تنقله وحلوله ، فقال : إن إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك بن مروان قتل أبى صبرا[3]، وأورثنى بذلك نكدا وضرا ، وأوهج فى فؤادى لهبا وجمرا ، وقد دارت على بنى أمية الدوائر وبلغنى أنه بالكوفة مختف حائر ، فأنا كل يوم أركب وأفتش عليه لعل الله يوقعنى به لأشفى قلبى بقتله من كربه ، فآخذ بثأرى وأكشف عنى عارى وأطفئ لهبى وآخذ ثأر أبى .

---

(١) أى هارب من ثأر .
(٢) أى مستودع سر .
(٣) أى حبسه ومنع عنه الطعام والشراب حتى مات .

قال ابن سليمان : فعجبت من قضاء الرحمن ، وكيف ساقتنى أرجلى إلى شبكة مقتلى وأمشانى القضاء برجلى إلى من هو دائر على قتلى فاستحييت منه ومن الله ، وكرهت عند ذلك الحياة ، فسألته عن اسم أبيه لأتحقَّقُ ما يبديه وينهيه ، فأخبرنى فعرفته وتذكرت أنى أنا قتلته .

فقلت : ياهذا وجب على حقك وأنا غريمك ومسترقك ، وقد قرب الله خطاك وأنا لك متمناك.

فقال : وما ذاك ؟ فقلت : أنا إبراهيم الذى على طلبه تهيم ، وأنا قاتل أبيك فافعل بى ما يرضيك ، وخذ ثأرك وأطفئ نارك .

فقال : كأنه طال بك الجفاء ، وأضَرَّ بِك الاختفاء ، فأردت بالموت الخلاص واستندت لدعوى القصاص .

فقلت : لا والله الذى علم السر وأخفاه ؛ بل قلت الحق وفُهْتُ بالصدق، وخلاص الذمة فى الأولى أخف من قصاصِ الأخرى وأولى ، أنا فعلت بأبيك الأذى فى يوم كذا ومكان كذا بسبب كذا.

قال : فلما علم ذلك منى وتحقق أنه صدر عنى ؛ احمرت عيناه وانتفخت شفتاه ، وقامت عروقه ولمعت بروقه[1] وأزبدت شدوقه[2] وأطرق إلى الأرض ، وكاد يأكل بعضه البعض ، وجعل يرجف ويرعد ويزأر كالأسد ويتململ كريشة تقلبها الريح فى قاع البلد ، واستمر على ذلك زمانا يتأمل فيما يفعله بى إساءة وإحسانا؛ إلى أن سكنت رعدته وبردت همته فآمنت سطوته وقُهِرَ جَدْئُ سورته[3] ، ثم أقبل علىَّ ورفع رأسه إلى ، وقال : أما أنت

---

(١) أى لمعت عيناه من شدة الغضب .

(٢) أى خرج الزبد من فمه ، وهو علامة على شدة الغضب .

(٣) أى هدأ من الغضب .

فستلقى أبى غدا فيقتص له منك جبار السماء ، وأما أنا فلا أخفر ذمتى[1] ، ولا أضيع جوارى وحرمتى ولا يصل إليك مكروه منى ؛ ولكن قم واخرج عنى فلست آمن نفسى عليك ، ولا أقدر بعد اليوم أنظر إليك ، ثم دفع إلىَّ ألف دينار ، وقال : استعن بها على ما تختار فلم آخذها ولا نظرت إليها ، وخرجت من داره ولم أعرج عليها ولم أر أكرم من ذلك الرجل ، ولا أحلم ولا أعظم مكارم منه ولا أجسم .

وإنما أوردت هذه الحكاية وقى الله مولانا الملك شر النكاية ؛ ليعلم أن الذنب الكبير يستدعى العفو الكنير ، ممن قدره عظيم وحسبه جسيم ونسبه كريم ، كما قيل فى محكم الكتاب الحكيم ﴿**وَلاَ تَسْتَوِى الحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وَمَايُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ [فصلت:٣٤-٣٥] .

فقال الوزير : ناموس السلطنة وحشمتها ، وهيبة الملك وحرمتها له شروط ، كل منها محرر مضبوط ، وبالمحافظة عليه محوط ، ولابد من إقامة أركانها وتشييد بنيانها ، ويجب الوفاء بها على المملوك والمالك ، ويفترض القيام بها على سلاطين الممالك ، والإخلال برعايتها وهن فى الولاية ، فلا غنى عن العمل بها ورعايتها أحسن رعاية ، فمن ذلك أن لا يسامح جماعة ولا يغفل عنهم وعن كيدهم ساحة فساعة ، ولا يركن إليهم فى إقامة ولا سير حيث لا يصدر عنهم للملك ولا للمملكة خير ، فمنهم من يعزل الإنسان عن منصبه من غير وقوف العزله عن سببه ، ومنهم من يوالى أعداء الملك وهو ذو اجتراء منهمك ، ومنهم من يراعى مصلحة نفسه ويقدمها على مصلحة مخدومه فى حالتى رخائه وبأسه ، ومنهم من يفشى سره ولا يراعى خيره وشره ، ومنهم من يتعرض لسقطه وغلطه لتغيير خاطره وسخطه ، ومنهم

---

(١) فلا أنقض عهدى .

من ينتقص حرمته وينتهك عظمته وحشمته ، ومنهم ذو الطبع اللئيم المفسد فى الحريم . ولا شك أن أبا نوفل المهمل المغفل قد ارتكب بعض هذه الصفات ، وهو متلبس بأشنع الحركات ، وهذا يدل على لؤم أصله ، وشؤم محله ، وسوء طَوِيَّتُه وفساد نيته ، ومن أكرم اللئيم فهو الملوم ، وهذا أمر معلوم وقد قيل :

إذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيْمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَئِيْمَ تَمَرَدَا

فقال أخو نهشل الفقير : لا تقل ذلك أيها الوزير ؛ فإن أبا نوفل عبد خديم ومخلص قديم وظريف نديم ، ومحب صديق وودود شفيق أمين ، ثقة ذو وفاء ومقة ، محب ناصح وجليس صالح ، لم يعلم مولانا الملك عليه إلا الخير، ولم يزل يسير فى طريق العبودية أحسن سير ، ولم يطلع منه على شىء يعيبه ولا يشينه فى الدارين ولا يريبه ؛ بل هو ملازم لوظائف عبوديته مباشر لما يجب عليه من شرائط خدمته ، لم يصدر عنه أبدا غش لمخدومه ولا خروج عن امتثال أوامر مرسومه ، فإن صدرت منه هفوة نادرة أو سهوة بادرة أو جفوة سادرة[1] فحلم مولانا الملك لا يقتضى ؛ بل ولا يرتضى ، إطراح هذه الأوصاف المتعاضدة لأجل هذه الزلة الواحدة كما قيل :

فَإِنْ يَكن الفِعْل الّذى سَاءَ واحداً فَأَفْعَالهُ اللاتِى سررن أُلُوف

مع أنه حصل له من كسر الخاطر وإحراق القلب وإغراق الجفن المماطر مالا يجبره إلا العواطف السلطانية والمراحم الشريفة الملوكية ، ونظرة من الحنو والعطف وذرة من الشفقة واللطف تكفيه ، ومن أليم الجفاء تنجيه وبعد شدة الممات تحييه ،وإلا فلا نعرف أحدا يجبر كسر ذلك الوهن أبدا إلا الآلاء السلطانية من يد العلو تعالى مقامها إلى درجات السمو والعطف والحنو.

---

(١) عابرة .

ثم عطف على الدب وقد حفز لإيقاعه الجُبّ ، وقال : أما أنا مع قلة البضاعة واحتقار مقامى بين الجماعة فقد أقمت نفسى لما وجب عليها فى مقام الشفاعة فلا أقصر فيها ولا أرجع عنها ﴿**وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا**﴾ [النساء:٨٥] .

وأسال صدقات مولانا أبى اللماس[١] المساعدة فى إنجاز هذا الالتماس، وأن يكون هذا شريكا لى فى إحراز هذا الجَعْل[٢] والوصول إلى أنواع الفضل من هذا الفصل ، فإنه يرد عنا فئه ﴿**وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً**﴾ [النساء:٨٥] .

وأرجو من وزير الممالك أن لا يقع منه مخالفة فى ذلك ، فإن من سكن الكرم فى ربعه لا يصدر منه إلا ما يليق بكرم طبعه واللئيم بتكلف ؛ بل يحسد عليه ويتأسف إذا شرع فى مكارم الأخلاق وتعاطى فيها ما لم يقسمه له مقسم الأرزاق ، ترى وجوه محاسنها فى مكامنها تتستر منه بأنقاب النشوز وأبكار خدورها فى قصورها تتراءى لعينه فى صورة شوهاء عجوز ، فلا يطاوعه لسانه فى طيب المقام إلى طيب المقال ولا يبعثه جنانه إلى مباشرة حسن الفعال فيصير كما قيل :

يُرَادُ مِنَ القَلْبِ نِسْيَانَكُم ... وَتَأْبَى الطِّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ

والناس على دين ملوكهم ، سالكون طريق سلوكهم ، وحيث كان مولانا الملك مجبولا على الشفقة الكاملة والمراحم الشاملة ، فكلنا يجب على ذمتنا ويلزم دائرة همتنا أن نتخلق بأخلاقه العلية ونتشبث بأهداب شمائلها الرضية ونتعاون جميعا على التزين بملابسة ملابسها البهية ، ونستضىء بل نهتدى فى دياجير المعاش بدارى[٣] أفلاك صفاتها الزكية ، فإن العبد فيما يتعاناه مجبول من طينة مولاه ، وإن الله جل وعلا ؛ لا يضيع أجر من أحسن عملا.

---

(١) أبو اللماس من كُنى الأسد .

(٢) الهدف والغرض .

(٣) الكواكب العظام التى لا تعرف أسماؤها .

قال : فأُلْجِم الدب ذو الساقطة بما فعله به من المغالطة . ثم أمسكوا عن الكلام وانتظروا ما يصدر من الضرغام فلم يُبْدِ خطابا ولا أنهى جوابا ، سوى أن قال : صلوا فى الترحال ، ولا تبدوا ولا تعيدوا ولا تتقصوا فى هذه القضية ولا تزيدوا ، حتى أمعن فيها النظر وأستشير فيها مشير الفكر ، فمهما أشار إليه الرأى وأرشد إلى اتباعه الهدى فيما يتعلق بحاله تقدمت إليكم بامتثاله .

فلما انصرفوا توجه أخو نهشل إلى الحبس وذكر لأخيه ما جرى بينه وبين ذلك النحس ، ثم قال : أبشر بالنجاح والفلاح والصلاح ، فقد رأيت فى جبين الفوز نور صباح ، ولاشك أن الله الغفور يجرى على يدى ولسانى من الأمور ما يجلب السرور ويذهب الشرور ، فكن أوثق صبور وإن حصل فى الطريق عقبة تعويق فلا يكن فى صدرك حرج ، فإن وراءها باب الفرج ، فإن الظُّفْر مقرون بالصبر ، والصبر مشفوع باليسر وقد أجاد صاحب الإنشاد:

أَصْبِر عَلَى مَا جَرَى مِنْ سَابِقٍ قَدُمَا فَمَرْكِبُ الصَّبْرَ بِالإِمْهَالِ تَلْحِقه

فشكر له جميل سعيه ثم عرض على مشير وعيه ، فقال : كنت أرى أن هذه القضية تُؤخَّر ويرجا السعى فى أمرها ولا يذكر ، وسبب ذلك أن الطالع قد أدبر ، والحظ عن المساعدة قد تأخر ، وإذا تحرك الشخص ، والسعد ساكن ، وتبسم الدهر ، والزهر باكٍ وطلب شكر مسالمته وهو شاكٍ؛ فهو كقاطع البحر بالمراكن[1] ، والبانى على ثبجة[2] أماكن لا يصلح له عمل، ولا ينجح له أمل ، فيشبه إذ ذاك الحمار المعصوب العينين فى المدار يقطع بالمسير زمانه ولا يفارق مكانه ، كذلك من يتعاطى الأعمال والسعد غير

(١) المراكن ، مفردها مركن : الإناء يُستعمل لغسل الثياب .
(٢) المكان الغير مستوى على الأرض الذى لا يصلح عليه بناء .

عَمَّال ، فلا يستفيد إلا التعويق والتبعيد ، ففى تلك الحال ينبغى الإمهال لا الإهمال إلى أن يتوجه السعد بالإقبال ؛ فعند ذلك مد الشباك وصيد السِّماك ، فإن السعد أتاك والدهر واتاك ، وناهيك قصة كسرى القديم مع وزيره بزرجمهر الحكيم ، فسأل أخا نهشل بيان ما نقل من المثل أخوه أبو نوفل .

[٣٦] **فقال** : بلغنى أن كسرى أراد التنزه فثنَّى إلى حديقة عَنَان التوجه، وطلب الحكيم بزر جمهر ، وجلسا تحت دوحة زهرر على بركة ماء ؛ أصفى من دموع العشاق ، وأنقى من قلوب الحكماء ، ثم طلب طائفة من البط لتلعب قدامه فى البركة وتنغط[1] ، وجعل ينادم وزيره ويتلقف منه حكمه المنيرة، ويتعرج على البط وهو يلعب ويتأمل فى أنواع حكم الصانع القديم ويطرب ، وصار يعبث بالخاتم فى أصبعه ويسرح فى رياض الصنع سوائم منظره ومسمعه ، فسقط الخاتم من أصبعه وهو ساه ، وشاهد بزرجمهر هذا الأمر فما أبداه ولا أنهاه ، فالتقمته بطه وغطت فى الماء غطة ، وكان فيه فص ثمين وكسرى به من المغرمين .

فلما سود قلم الاقتدار بياض النهار ، وأكمل مشقه على قرطاس الأقطار، أَذِنَ كسرى للوزير بالانصراف ، وقد أسبغ عليه خلع الإنعام والإسعاف ، ودخل كسرى إلى الحرم وافتقد من أصبعه الخاتم ، فلم يتذكر ما جرى له ولا وقف على كيفية هذه الحالة ، فأرسل بطلب الوزير البارع وسأل منه على خاتمه الضائع ، وكان الوزير قد نظر فى الطالع ، فرأى أن الكلام فى أمر الخاتم غير نافع ، فلو تكلم بصورة الواقع ذبح جميع البط وما وجد لأن الطالع مانع ، فكتم أمره وكلمه بكلام الحقيقة : الحد ؛ جامع مانع ، ثم انصرف وذهب واستمر كسرى على الطلب .

---

(١) تلهو وتقفز فى الماء .

ولم يزل بزرجمهر يراقب الأوقات ، وينظر فى أحوال الساعات إلى أن استقام الطالع وزال من السعد المانع ، وتيمن الفأل وحسن البال وحال الوبال فتوجه بزرجمهر إلى خدمة مخدومه وأخبره بما كان مخفيا من أمر الخاتم فى جيب مكتومه ، وأنه سقط من أصبعه وهو على البركة فى موضعه ، فبادرت بطة إلى الغطة فاختطفته وابتلعته بعدما التقمته فأحضروا البط جميعه وذبحوا من عرضه واحدة بديعة ، فوجدوا الخاتم فى حشاها ولم تحوج إلى ذبح سواها ، ثم سأل كسرى الحكيم الأديب لم لم يخبره بهذا الأمر الغريب فى أول وقوعه وصدوره وما موجب تأخيره .

فقال : كان إذ ذاك الجدُّ فى انعكاس والسعد فى انتكاس ، والطالع فى سقوط والنجم فى هبوط ، وأما الآن فالطالع استقام والسعد كالخادم أقام ، ونجم السعود قد حال عنه الهبوط والوبال ، وفى استقامة السعد وإقباله من بعد يفعل الشخص ما شاء فالدهر معه جار سواء جارى أو ماشى .

وإنما أوردت هذا النظير ؛ لتعلم أن معاندة التقدير أمر خطير وخطب عسير ، فربما يفرغ الإنسان جهده فى المبالغة ويكون الأمر فيه ممانعة ومراوغة ، فينعكس المرام ولم يحصل سوى إضاعة أيام ، ولم أذكر هذه المفاوضة إلا على سبيل العرض لا المعارضة ، لما أعلم منك من وفور الفضيلة وإن مقاصدك على كل حال جميلة .

فقال أخو نهشل : الأمر كما زعمت وأشرت به ورسمت ، ولكن خشيت إن لم أبادر يسبقنى عدوّ غادر ، أو حسود ماكر ، أو مبغض مكابر ؛ فينهى إلى المسامع ما ليس بواقع ، فلم نشعر أيها البطل إلا وقد ولج قلب الملك أنواع من مكر ودخل ، فيصير كما قيل :

أَتَانِى هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَىَ فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا

لاسيما وقد تقرر فى الأمثال عند غالب الرجال ، أن الدعوى لمن سبق لا لمن صدق ، وبالجملة يا أبا عويلة إذا كانت مقاصد الشخص جميلة فإن الله تعالى ينجحها ولا يفضحها ويدبرها ولا يدمرها ، وإن كان فى الظاهر وعند البادى والحاضر يظهر فى بعض القضايا نوع هم وغم ؛ لكن ذاك السر لم يطلع عليه إلا مدبر العالم ، وإذا فوض الشخص الأمور إلى العزيز الغفور الذى هو مدبر الطالع والغارب ، وفى الحقيقة رب المشارق والمغارب ، وعلم أن مقاليد الأمور بيد تدبيره ، وإن ملوك الأرض تحت تصريف تقديره وتسخيره ؛ استراح فى كل المطالع وأخلص التوكل فنجاه الله من كل الوقائع وأوصله إلى مارام من المطامع ، وحسبك قضية الناصح الأستاذ الأمين الدمشقى مع الخائن جاسوس بغداد وهى طويلة طائلة فى مجلدة كاملة .

وأيضا لم أبادر بمفاتحه السلطان فى أمرك يا أعز الإخوان ؛ لئلا أنسب إلى تهاون وتوان وما من شروط المروّة والصداقة والأخوة أن يتخلف الفَطِن فى مثل هذا الموطن عن مساعدة الأصحاب ومعاونة الأحباب ؛ لاسيما صديق مثلك وحبيب متسم بفضلك ، وإنى لا أدع من أنواع الاجتهاد وما يحسن ببالى فى الإصدار والإيراد شيئاً إلا فعلته ولا أمر إلاّ قدمته ولا فكر إلا استعملته ، ولو بذلت فى ذلك روحى ومالى وخيلى ورجالى ، وإنى مباكر باب الملك وملازمه كأحسن من سَدَك[1] فإن رأيته مكرما مقامى مصغيا إلى كلامى خاطبته بما يليق وسلكت فى الشفاعة وحلو العبارة أوضح طريق ، وإن شاهدت فى خلقه شكاسة وفى طبعه شراسة وصعوبة وشماسة ؛ سلكت سبيل حسن السياسة . وفى الجملة : أستعمل علم الفراسة وفى كل حكم نظيره وقياسه وأستعين ، بالأقرباء والأوداء ، وأغالط المناقض والمعارض من الأعداء ، وأقصد النَّجْحَ وأراقبه ، وأرتقب السعد وأخاطبه ، وأسلك مع كل

---

(١) لزم ولم يفارق .

أحد ما يناسبه ، فالعدو أقتله[1] ، والحسود أختله[1] ، والعذول أفتله[2] ، والمحب أحتله[3] ، والمبغض أبتله[4] ، من تصلب فى المدافعة أمثله[5] إلى أن ينقضى هذا الأمر وينطفى منه الجمر ويقبل مبشر الأمانى بالطبل والزمر .

ثم إنه بات مفكرا وبادر إلى الصباح مبكرا ، وأَمَّ أبواب السلطان قبل سائر الخدم والأعوان ، فوجد الدب قد سبقه وجلس من عين المكروه فى الحدقة ، وقد فَوَّقَ سهم الكيد وصوبه إلى شاكلة الصد[6] ولم يبق إلا إطلاقه ليشد من المرمى وثاقه ، فقبل النديم الأرض وأعلن سلامه ، وقطع على أبى حميد كلامه وعارض ملامه وناقض مرامه ، وقال : أدام الله أيام السعادة وأعوام الحسنى وزيادة ؛ المستمدة من بقاء مولانا السلطان وعمر دهره المخلد على تعاقب الزمان ، وأوطأ قمم الأمم مواطئ قدمه ، وأطاب بطيب حياته معايش عبيده وخدمه ، كانت المواعيد الشريفة والآراء المنيفة سبقت بالتأمل فى أمر عبدها القديم وخديمها الفقير النديم وجالب سرورها أبو نوفل النديم ، مع ما كان لائحا وعلى صفحات الرضا واضحا من شمائل الأخلاق الملوكية ومكارم الشيم السلطانية إن مراحمها ستأخذ بيد العاثر وتقيل عثرته بحسن المآثر ؛ بحيث يشرح الحاسر ويربح الخاسر والمملوك يسأل مراحمها ويرجو مكارمها أن لا تخيب ظنه وإن تحير بتحقيق ظنه وهنه ، وإن تجرى مماليكها وعبيدها على ما عودها من الصدقات قديمها وجديدها ثم أنشد وإلى الرضا أرشد :

أَرْجُو أَبَا العَبَاس أَنْ يَرْوى لَنَا ... عَنْ ثَغْرَةِ الضَحَاك نَوْراً يَقْتَبس
فاقْرأ تَبَسم ضَاحكاً مِنْ قَوْلها ... مُتَهللاً نَحْوى وَلاَ تَقْرأ عبس

---

(١) أخدعه .
(٢) أصرفه وأبعده .
(٣) أقربه وأعطيه .
(٤) أقضى عليه وأقطعه .
(٥) أى أُمَثِّلُ به .
(٦) وجَّه السهم إلى وجهته .

فتبسم أبو العباس ابتسامة ظهرت منها للرضا علامةِ ، فاشتعل الدب من القيظ وكاد يتمزق من الغيظ ، وعلم أن عقد أمره انفرط ونجم سعده من فلك السعد سقط ، وأنه لم يكتسب من مكايد القساوة إلا هاتيك العداوة ، وانكشف عند مالكه ما وطأه من مغطى وقرأ كل أحد حديث ذلك الموطأ[1] ، وغلب عليه الوجد فى الحال فخرج عن دائرة الاعتدال ، وسكر من خمرة العداوة فطفح وعربد وشطح .

فقال : كل من ستر على أعداء الملك فهو الخيانة والجناية مشترك وكل من شفع فى الجانى فهو فى قيد العصيان عانى ؛ بل هو أشد من المباشر إذ هو معاشر للمتعاطى ومكاثر ، والإبقاء على المعصية شر منها ، والرضا بكفر الكافر فتنة يفر عنها ، وما أظنك أيها النديم العارف القديم لمعرفة هذا القدر عديم ، فإن أبيت إلا الإصرار ومساعدة الفجار ومعاونة الأشرار فأنت حينئذ مُستَخِفٌ لهيبة ولى نعمتك مستنقض حرمة مالك رقبتك طالب لابتذاله ، مستهين بمقام جلاله ، راض بتسليط الأنذال والأوغاد الأرذال على انتهاك حرمته وابتكاك[2] أستار حشمته ؛ ونحن لا نرضى بذاء الذمامة ولا كيد للمخالف ولا كرامة .

فعند ذلك استشاط الغضنفر ، وتأثر لكلام الوزير ، وتغير وزأر وهمر وزفر زفرة وزمجر ، وكاد أن يثب على أبى جمهر ، ثم إنه تماسك وتناسى الغدر وتناسك وقال : يا أبا سلمة ؛ كَبُرت كلمة ؛ غيبة الأصحاب والنميمة بين الأحباب ، وساءت حركة ، وبئست ملكه تناسى الحقوق وتحاشى العقوق،

---

(١) الموطأ ، مفعول من وطىء ، ورجل موطأ أى سهل الأخلاق كريم مضياف ، والموطأ على الإطلاق عند العلماء يعنى موطأ الإمام مالك بن أنس الذى جمع فيه سنن المصطفى ﷺ .

(٢) كشف .

وإطراح جانب الصديق الصدوق والرفيق الشفوق وإضاعة خدمة الخديم؛ لاسيما النديم القديم ، ولم تزل الأصاغر تستمطر مراحم الرؤساء والأكابر ، ولم تبرح الملوك تعطف على مسكينها الصعلوك أنسيت ما قلت لك فى حقيقة من ملك وهو :

لَيْسَ المَلِيك الَّذى تَشْقَى رَعِيتَه وَإنَّما المَلِكُ مَوْلَى يَحْفَظُ الخَدَمَا

وأيضا لم تزل الأصحاب تساعد أصحابها ، وتستعطف عليها ملوكها وأربابها وترفع بحسن السفارة من ستائر الدهشة حجابها ، ويثبتون بذلك الأجر العظيم والثواب الجسيم والثناء العاجل والجزاء الآجل فى صحائف مخاديمهم ، ويعدون ذلك أربح معاليمهم ويبذلون فى ذلك الجهد ويبلغون فيه غاية الكد . وذلك مما يجب عليهم ويتقدم بالمحافظة عليه إليهم كما قيل :

يَسْتَعْطِفُونَ الأَكَابِرَ يَسْتَعْبِدُونَ الأَصَاغِر
يُحِبُونَ رَسمَ الأَوَائِلِ يُعَلِمُونَ الأَوَاخِرَ

وأى فائدة واستفاده أيها الوزير أبا قتادة فى رعية ملك لا تتفق قلوبهم ، ولا تُسْتَر بينهم عيوبهم ، ولا تطهر بالصفاء جيوبهم ، ولا تتجافى عن مضاجع الجفاء جنوبهم ، ولا يتساوى فى الوفاء حضورهم وغيوبهم ، تراهم فى الغيبة يفت بعضهم فتاً ويرعون لحومهم قتا[1] كبهائم لاقت فى مرعاها قتا[2] ، وفى الحضور تحسبهم حميعا وقلوبهم شتى . ثم إن كان أخو نهشل يساعد أخاه أبا نوفل ، فذاك شىء يجب عليه ويندب إليه ، فإنه صاحبه القديم وجليسه القويم ، وإن تخلى عنه فماذا يرجى منه ، وحجر النوائب هو محك الأصحاب ، وجمر المصائب يظهر من تبر الصداقة اللباب . وقد قام فى هذه

---

(١) القت : الكذب .

(٢) القتا : نبات له حَب يؤكل ، والواحدة : قتة .

النوائب بعدة أشياء كلها عليه واجب ، أولها : القيام بحق أخيه والسعى فى خلاصه من هذا الأمر الكريه . ثانيها : ساق إلى صحائفى الحسنات وقصد لى رفع الدرجات . ثالثها : طلب رضا خاطرى وما يشرح صدرى ويَسُرُّ سرائرى . رابعها : مباعدتى عن الآثام وخلاص ذمتى من الوقوع فى الحرام، فربما يحملنى العنود والخلق الشرود على التعدى فى الحدود . خامسها : اشتهار اسمى بالفضل وعدم المؤاخذة بالعدل ، فيشيع فى الآفاق عنى مكارم الأخلاق . سادسها : انتشار صيتى بحسن الوفاء والقيام بحقوق الإخوان وعدم الجفاء . سابعها : إنه غرس فى قلوب الأماثل محبته وزرع فى أرواح الأفاضل مودته ، وإن كان صدر من أبى نوفل ما صدر فإنه اعترف بالذنب وعنه اعتذر ، فنعمل معه بالظاهر والله تعالى يتولى السرائر كما قيل :

اقْبل مَعَاذِير مَنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذراً ... إن بَرَّ عِنْدَكَ فِيما قَال أو فَجَرَا
فَقَد أَطَاعَكَ مَنْ أَرْضَاكَ ظَاهِرهُ ... وَقَد أَجَلَّكَ مَنْ يُعْصِيكَ مُستَتِرَا

ولو بلغت هذه الحكاية غاية الشر ونهاية النكاية ما تدنى واقعة الملك الصافح عن عدوه المؤذى السافح ؛ فقبل الدب الأرض ، وقام فى مقام العرض ، وسأل الملك بيانها ؛ ليعلم بحس التصريف فرزانها ويقيس عليها أوزانها .

[٣٧] **فقال** : ذُكِر أن بعض السلاطين تصدى له عدو من الشياطين ، يحرض عليه الأعادى ويفسد عليه الحاضر والبادى ، ويجتهد فى إقامته ومسيره فى إزالة الملك عن سريره ، ويغرى به العساكر فيقابله ظاهرا بالنواكر وباطنا بالمواكر ، وما فسد منه ما فسد إلا بدواعى الحقد والحسد ، فجعل الملك يسترضيه بالهبات فلا يرضى ويستدنيه بالصلات فلا تزيده صلاته إلا بعدا ونقضا كما قيل :

إلى كَمْ يُدارى القَلب حاسد نعمةٍ ... إذا كان لا يُرضيهِ إلا زَوَالِهَا

فاضطر الملك من أموره ، واشتغل لإيقاعه بنذوره ، وجعل ينصب له شرك الوقائع ويجتهد فى إيقاعه بكل دان وشاسع ، وذلك الباغى أحذر من الغراب ، وأسهر من طالع الكلاب ، والملك لا يقر له قرار ولا يطيب له عيش لا بالليل ولا بالنهار . فكان من أحسن الاتفاق أن علق ذلك البغى ببعض الأوهاق[1] فحمل إلى حضرة الملك وهو فى قيد البلاء مشتبك . فلما رآه فى قيد النكد بادر إلى الأرض فسجد ، وقال : الحمد لله المغيث حيث أمكن منك أى خبيث ، أترى هذا فى المنام ، فهو أضغاث أحلام ، أم سمح الزمان بأهل العدوان وأنا يقظان ، ثم شرع فى السَّب والتجديع[2] والتوبيخ والتقريع ، وأقسم بفالق الإصباح وخالق الأرواح والأشباح ليفعلن بذلك النباح من النكال والجراح ما فعل المصطفى عليه الصلاة والسلام مع سرّاق اللقاح[3] ، وليذيقنه كأس الباس وليجرعنه من خمر المنية أمر كاس .

ثم أمر الجلاد أن يأتيه بماله من النطع[4] والسيف والعتاد ، فعلم ذلك الزنديق أنه وقع فى الضيق وأنه لا ينجيه أخ ولا صديق ، ولا افتداء يشقق ولا حميم وشفيق ؛ فضلا عن مال ومنال أو خيل ورجال . فلما غسل يده من العيش استهوته الخفة والطيش فشرع فى السباب ودخل فى الشتم من كل

---

(١) الأوهاق ، مفردها الوهق : حبل يُطرح فى عنق الدابة وتُشد منه .

(٢) أى عيّبه .

(٣) سُرّاق اللقاح : هم أناس من قبيلة عُرينة كما جاء فى الحديث الذى أخرجه البخارى : باب أبوال الإبل والدواب (٢٣٣) عن أنس قال : قدم أناس من عُرينة ، فاجتمعوا المدينة فأمرهم النبى ﷺ بلقاح (الإبل) وأن يشربوا من أبوالها وألبانها ، فانطلقوا : فلما صحُّوا قتلوا راعى النبى ﷺ ، واستاقوا النَعم . فجاء لخبر فى أول النهار ، فبعث فى آثارهم . فلما ارتفع النهار جيء بهم ، فأمر فقطع أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم وألقوا فى الحرّة يستقون فلا يسقون .

(٤) النطع : بساط من الجلد يشد تحت المحكوم عليه بقطع الرأس أو اليد .

باب، ورفع بفاحش الكلام الصوت وقال ما بعد الموت موت . فسأل الملك أحد الوزراء ماذا يقول من الافتراء هذا الظالم المجترئ الباغى المفترى ؟ فقال : يدعو بدوام البقاء ، ورفعة مولانا الملك والارتقاء ، ويقول : ما أحسن العفو عند المقدرة واللطف والكرم أيام الميسرة ، وإن لم يكن ثم مجال للمعذرة ولو جعل العفو شكر المقدرة لكان أولى وأعلى مقاما فى مكارم الشيم وأحلى كما قيل :

مَا أَحْسَنُ العَفْوَ مِنَ القَادِرِ لا سِيَمَا لِغَيْرِ ذِى نَاصِرِ

ويترحم على أسلاف مولانا السلطان ؛ الذين كان شيمتهم العفو عن ذوى العصيان ، وكان ذلك منتهى لذتهم وغاية أمنيتهم ، وما أجدر مولانا الملك أن يحيى مكارم سلفه ويجعل العفو كلمة باقية فى خلفه ، ولازال يقول من هذا المقول حتى لان له القلب القاسى ورق له قلب الملك الجاسى[1] ، فأمر بإطلاقه ومَنَّ عليه بإعتاقه وكان أحد الوزراء وأركان الأمراء شخص يعاكس هذا الوزير ويناقضه فيما يراه ويشير ، وبينهما مرت أسباب عداوة أحلى فى مذاق طبعهما من الشهد والحلاوة ، كل مترصد للآخر زلة متوقع لإيقاعه فى شبكة البلاء غفلة ، فحين رأى شقة الحال نسجت على هذا المنوال وجد فرصة للمقال فتقدم وقال : ما أحسن الصدق وأيمن كلام الحق ؛ خصوصا فى حضرة المخدوم وهذا أمر معلوم ، عدو مبين وحسود مهين لم يترك من أنواع العداوة شيئا إلا تعاطاه ، ولا من الإفساد والشر صنفا إلا هيأه، قد أهلك الحرث والنسل وبدل جنتى الصلاح من الفساد بخمط[2] وأثل[3] إلى أن أمكن الله تعالى منه ، وحان تفريغ الخواطر الشريفة عنه . ثم إنه فى

---

(١) القلب القاسى .

(٢) الخمط هو شجر الأراك وهو شجر فى طعمه مرارة .

(٣) الإثل : نوع من الشجر يشبه شجرة الطرفاء خشبه صلب تصنع منه القصاع والجفان.

مثل هذا المقام بين الخواص والعوام يثلب الأعراض من الأمراض ، ويجهر بالسوء من القول ، ويصرف فى الخنى[1] والسب ماله من قوة وحول ، كيف يحل السكوت عن جرائمه وتغطية مساويه وعظائمه ، فضلا عن أن تتجلى سيئاته فى خلع الحسنات ، وتتحلى شوهاء سواخط أدعيته بملابس أحسن الدعوات ومع هذا يطالب له التوقع والخلاص والإطلاق من شرك الاقتناص، وهو على ماهو عليه من الإساءة المنسوبة إليه . أما والله يا مولانا الهمام وسلطان الأنام ما قال إلا كذا كذا من قبيح الكلام وتناول العرض المصون بالسب والدعاء والملام فتغير خاطر الملك وتعكر وتشوش صافى خاطره وتكدر .

ثم قال : أيها الوزير ذو الصدق فى التحرير والله وحقك إنَّ كِذْبَ هذا الوزير عندى خير من صدقك ، فإنه بكذبه أرضانى وإلى طريق الحق هدانى، وأصفى خاطرى من الكدر ، وأطفأ ما كان تلهب فى غيظى من شرر ، ونجانى من دم كنت أريقه ولا يهتدى إلى كيفية استحلاله طريقه ، فأصلح بذلك ذات البين وأصار المتعاديين أحسن محبين ، وخلد ذِكْرِى بجميل الصفات ، وسلك بى طريقة أجدادى الرفات[2] ، وأما أنت فكدرت عيشى وآثرت غضبى وطيشى وأسمعتنى الكلام المُرَّ وقد مسنى الضر ، وأما أنا فقد أعتقت هذا وأطلقته فلا أرجع فى إيذائه وقد أعتقته ، وقد ثبت لهذا الوزير علىَّ حقوق لا ينكرها إلا ذو عقوق ولا تسعها الأوراق والرقوق[3] ، فكذبه عندى خير من صدقك ، وباطله أحلى على قلبى من حقك ، ولهذا قال ذو الأفضال : ما كل ما يعلم يقال .

---

(١) الفحش فى الكلام .

(٢) الأموات السابقين .

(٣) الرقوق ، مفردها رق : الورق والصحف .

وإنما أوردت هذا الكلام يا كرام ؛ لتعلموا أن السلطان بمنزلة الإمام ، وأركانه له تبع فى القعود والقيام ، ولا يتم الائتمام إلا بالاتفاق بين الرفاق ، فإذا كان الجماعة مجمعين طائعين لإمامهم مستمعين ، استقام القيام وانتهوا من جميل التحيات إلى السلام ولا يقع لهم انتظام مع مخالفتهم لحال الإمام ، هذا قائم وهذا قاعد وهذا راكع وهذا ساجد وهذا نائم وهذا هاجد . وأيضا السلطان بمنزلة القلب والرأس ، وبمنزلة الأعضاء رؤساء الناس ، وباقى الرعية خدم للرأس والأعضاء ، منتظرين لما تبرز به المراسيم من الزجر والإمضاء ، فإذا اتفقت الأعضاء واصطلحت ، انتظمت أمور كل من الرأس والرعية وانصلحت ، وإذا وقع اختلاف وتباين فى الأعضاء صار كل من الرأس والقلب والرعية مَرْضَى . ولقد صدق من قال وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرضى : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[1] .

وخلاصة هذا الكلام : إن قصدى أن تكون أحوال رعيتى على النظام لا يقع بينهم شقاق ولا تنافر ولا نفاق . وأما أبو نوفل فيكفيه حياؤه وخجلته ، فقد انتهت وتمت عقوبته ، وأخذ حدُّه حدُّه ، ولا يليق بكرمي أن أرده ، وهذا الذى ورثته عن أسلافى وهو الحق اللائق بمحاسن شيمى وأوصافى .

فلما سمع الوزير هذا الكلام وجرح فؤاده هذا الملام ، ندم غاية الندم ، وعلم أنه قد زلت القدم ، وأنه لا حاجته قضى ولا على صديقه أبقى ولم يستفد مما أبداه من فجْم[2] ؛ سوى إظهار معاداة أبى النجم ، وإنه إذا تخلص من حبسه وكربه ورجع عند الملك إلى منادمته وقربه لابد أن يتصدى لمعاداته وسلبه ولا يفيده بعد ذلك أفعاله ولا يسمع فى أبى نوفل أقواله . فانصرف من

---

(١) حديث أخرجه البخارى : كتاب الصلاة ، باب تشبيك الأصابع فى المسجد وغيره (٤٨١) .

(٢) غلظة وعداوة .

عند الملك الطيثار[1] لا يدرى أين يضع قدمه من الافتكار ، حتى وصل إلى منزله ، واختلى فى فكره بعمله وفرغ للمخلص من هذه الورطة طرقا ، وتفرقت رواد أفكاره فى منازل الخلاص فرقا ؛ فأدى نصيب الرواد من الآراء ومفيد القصاد من الشورى إلى السعى فى مصالحة أبى نوفل ، وإزالة ما وقع من الغبار فى وجوه الصداق وتخال ، ثم أدى افتكاره واروى من زند رأيه شراره إلى أن الذى وقع منه قد اشتهر وعلم به أصحاب البدو والحضر، فإذا طلب من بعده الصلح فذلك فى غاية القبح إذ كل من فى حجره حجز يتحقق أن ذلك خور وعجز . فصار يتردد بين هذه الأفكار ويتأمل ما فيها من تحقيق الأنظار وتدقيق الأسرار . فبينما هو فى بحر الافتكار يلطمه الموج ويصدمه التيار ، دخل عليه صفى له صافى الوداد ، وهو ظبى أغر يدعى مبارك الميلاد ، ذكى الجنان فصيح اللسان دقيق النظر عميق الفكر ذو رأى صواب وشفقة كاملة على الأصحاب فرآه مطرقا إلى الأرض فى فكر ذى طُولٍ وعرض ، فسلم عليه وتقدم بالسؤال إليه عن نشور باله[2] وتوزع حاله، فطلب الوقوف على ما ناله لينظر عاقبة أمره ومآله ، فأخبره بموجب ذلك وأنه قد سدت فى وجهه المسالك .

فقال مبارك الميلاد : يا صحيح الوداد أنت قد زعمت أن مولانا السلطان قد ترك أبا نوفل الندمان وطرحه اطراحا لا رجعة فيه ، وإنه بعد اليوم لا يذكره ولا يدنيه ، وإن عثرته لا تُقَال وغصته لا تزول وقصته لا تزال ، هيهات هيهات يا أبا الترهات ، الملوك إن لم يعرفوا حقوق خدمهم ولم يثبتوا فى ديوان إحسانهم قدم قدمهم ؛ خصوصا هذا الملك العظيم الذى أنفاس شيمه تحى العظم الرميم ، ونحن قد زجَّينا[3] عمرنا فى خدمه وأذاقنا برد

(١) الطيثار : من أسماء الأسد ، ومعناه الشجاع .

(٢) التفرق والتشتت .

(٣) أى رمينا بعمرنا فى خدمته .

عفوه وحلاوة وكرمه وغذاء أرواحنا إنما هو غوادى حلمه وروائح نعمه ؛ مع أن أبا نوفل لم يقع فى محذور معضل يوجب تناسى ذممه وابتذال حرمته وحرمه وإنه استغفر وأناب واعتذر وتاب .

واعلم أيها الوزير الأكرم إن ذوى النهى والحِجْر إذا أرادوا الشروع فى أمر تأملوا فى مبدأه غايته ومنتهاه ، وهذا التقرير كالجلوس المقصود من عمل السرير ، فإنما تتبعث لصنعته النفوس إذا علمت بحصول الرفعة عليه من الجلوس كما قيل :

فَإِيَّاكَ والأمر الَّذى إنْ تَوَسعتَ مَوَارِدهُ ضَاقَتْ عَلَيْكَ مصادرُه

أما بلغك يا أخى وأكرم سخى ، حكاية التاجر البلخى . قال الوزير فأخبرنى بكيفية هذا التنظير .

[٣٨] **قال مبارك الميلاد** : بلغنى من أحد العباد الذين طافوا البلاد ؛ أنه كان فى مدينة بلخ[١] تاجر كثير العروض والمتاجر ، عريض المال والجاه، غزير الضياع والمياه ، تكاثر نقوده الرمال وتباهى خزائنه معادن الجبال، وتفاخر جواهره دُرر البحار وتسامى بضائعه تلال القفار ، تراجع عنه الحظ وعامله الزمان بعادة طبعه الفظ ، وأدبرت عنه من الدنيا القوابل ، ونزلت بساحة موجوده بالإعدام النوازل ، وولت وفود معايشه فكادت تقد السلاسل، فصار كلما عامل معاملة انعكست عليه حتى نفد جميع ما بين يديه . فلم ير لنفسه أوفق من التغرب عن وطنه والإقامة فى سكن غير سكنه ، فأخذ بعضا من المال وخرج من بلاد الشرق إلى بلاد الشمال ، وداوم فى الأرض على

---

(١) بلخ : مدينة قديمة فى أفغانستان من المدن التاريخية الهامة على ملتقى خطوط القوافل التجارية بين إيران والهند دخلها الإسلام فى القرن الأول الهجرى وأصبحت عاصمة خراسان لاسيما فى عهد السلاجقة . معجم البلدان (٢٠٩٦) .

الضرب حتى انتهى إلى بلاد الغرب ، فأقام بها دهرا يتعاطى معاملة وتَجراً، إلى أن زاد ماله وأثرى ورجع إليه بعض ما ذهب من يديه ، ثم اشتاق إلى بلده ورؤية زوجته وولده ، فتجهز إليها وسار حتى نزل عليها ، وأراد الدخول إلى داره فأوقفه مشيرا افتكاره إلى إعمال النظر فى حادث القضاء والقدر وأنشده الزمان بلسان البيان :

لِلكون دائرة مِنْ قَبْلِنَا صَنَعَتْ ... لا بى تضيق ولا مِنْ أَجْلِكَ اتسعتْ
والسر فى جَيْب غَيْب اللَّه مكتتم ... فَلستَ تدرى يد التَقْدير ما صنعْت

فرأى أن يدخل متنسيا متنكرا متخفيا ، ويتوصل إلى داره ويتجسس أحوال كباره وصغاره ، وما حدث عليهم من الحوادث وتقلبات الزمان العائث، فتوجه لما أظلم إلى داره وهو يترنم :

باللَّهِ قُلْ لِى خَبَرك ... فَلِىَ زَمَان لَمْ أَرَك

إلى أن وصل إلى الباب وما عليه حاجب ولا بواب ، فرأى الباب مقفلا والقنديل عليه مسبلا ، وكان يعرف للسطوح دربا خفيا فاستطرق منه وارتفع مكانا عليا ، وأشرف من الكوة[1] ، فرأى ربة البيت المرجوة فوق سرير الأمان ، معانقة فتى من الفتيان ، كأنهما لفرط العناق كانا ميتين من ألم الاشتياق ، فبعثتهما قيامة التلاق فتلازما والتفت الساق بالساق ، ولسان حال كل منهما يروى عنهما :

عَانَقْتُ مَحْبوبَ قَلْبى حِيْن وَاصلنى ... كأننّى حَرْفُ لام عَانَقَتْ أَلِفَاً

فتبادر إلى وهلة لغيبوبة عقله ؛ أن ذلك الشاب الظريف معاشر حريف، أفسد زوجته مغتنما غيبته ، وأنه فى تلك الليلة استعمل قوله :

لا تَلْقَ إلاّ بليلٍ من تواصله ... فالشمس نمامة واللّيل قوّاد

---

(١) الكوّة : الفتحة فى الجدار أو السقف .

فسل السكين وقصد قتل ذلك المسكين وصمم على النزول إلى البيت وإثارة الفتن بكيت وكيت ، ثم استتاب وهلة واستراب عقله ، وأخذ يتفكر ويتأمل ويتدبر أحوال قرينته وأنها في العفة مجبولة من طينته ، وإنه لم يعلم عليها إلا الخير وعدم ميلها عن خلالها إلي الغير ، فطلب قبل الفضيحة لزوجته طريقة مندوحة ظريفة ممدوحة ، فإن مدة غيبته طالت وزوجته إن كانت حالتها حالت فلابد أولاً من الوقوف عليها كيف استحالت ، ثم كف عن الذبح ونزل عن السطح ، وقصد جارة داره ودارة جاره ، وطرق بابها واستنبح كلابها، فخرجت إليه عجوز كانت إلي داره تجوز ، فسألت من هو وما مراده ومن أين إصداره وإيراده .

فقال إني رجل غريب ليس لى بهذه البلدة خليل ولا قريب ، وبلادى أرض مكة كنت أتردد إلى هذه السكة ، وأعامل التجار وكان لى فى هذه المحلة مجير وجار من التجار الكبار ، كنت آوى إليه وأنزل قدومى عليه ، اسمه فلان وقد مر علينا زمان ، وعاقنى عنه نوائب الحدثان ، والآن قدمت إلى هذا المكان وقد قصدت داره ولا أدرى أى جراد عاره ، ولم أعرف خبرا ولا رأيت عيناً ولا أثراً ، فهل تعرفين كيف حاله ، وإلى ماذا آل مآله .

فقالت : نعم زالت عنه النعم وألجاته الحال إلى الترحال فرحل منذ سنين وكنا في جواره من الآمنين ، وانقطع عنا خبره وعن زوجته عينه وأثره، وطال عليها منظره فدعتها الضرورة والإعدام إلي عرض حالها على الحكام ، فأذن لها قاضى بلخ فى إبطال نكاحها بالفسخ ، ففسخت نكاحها وأعتدت ، وطلبت نصيبها واستدت ، ولقد أوحشنا فراقه وألمنا اشتياقه ؛ غير أن زوجته قامت مقامه وأفاضت علينا إحسانه وإنعامه ، وهى متشوقة إلى رؤيته متشوقة إلى مطالع طلعته ، متلهفة على أيام وصاله ، متأسفة على ترشف زلاله . فلما وقف علي صورة الحال ؛ سجد شكراً لله ذى الجلال وحمد لله على الثبات في مثل هذه النائبات .

وإنما أوردت هذا المثال ؛ لتعلم فضيلة التأمل في المآل ، والتفكر في عواقب الأحوال .

قال الدب : دعنا من هذا الكلام والأخذ فى الملام ، واسعدنى في التدارك فإنك نعم المشارك قبل انفلات العنان وإنقلاب الزمان ، وخروج زمان التلافى من أنامل الإمكان ، وانتقال حل عقدته من اللسان والبنان إلى الأسنان.

فقال مبارك الميلاد : الرأي عندى يا أبا قتاد ؛ المبادرة إلى الصلح والإصلاح ليحصل النصح والفلاح والأخذ في المصافاة ، وسلوك طريق الموافاة ، والعمل به باطناً وظاهراً والاستمرار عليه أولاً وآخراً ، ومحو آثار العداوة وتناسي أسباب الجفاء والقساوة ، واستئناف المودة الصافية والمحبة الوافية ، وصرف القلب نحو دروس فقه الحلة الشافية والكافية ، حتي يقول من رأى وسمع : الحمد لله آلت العاقبة إلي العافية .

ثم أعلم أنه لا يصفو لك صاحب وخاطرك عليه للتكدر مصاحب ، ولا يخلص لك صديق ولبن خلوص محبتك إياه مذيق[1] وقاطع بغضك في الطريق وشوك سعيك راكب التعويق ، والقلوب في المحبة تتجازى إن حقيقة فحقيقة وإن مجازا فمجازا ، وكل شيء بمقدار وميزان وكما تدين تدان ، وقلما تجد من تحبه ويبغضك ، وتُرَبِّه ويرفضك وتصفو له ويتكدر ولا تتغير عليه ويتغير ، ودونك يا ذا الكرامات ما قال صاحب المقامات[2] :

وَكَلتْ للنَحْل كَمَا كال لي على وفاء الكيل أو بَخْسِهِ

---

(١) الوُدُّ لم يخلص فيه .

(٢) صاحب المقامات هو أبو محمد القاسم بن على بن عثمان الدريرى البصرى ، أحد أئمة عصره ، ورزق الحظوة التامة فى عملة المقامات ، وقد اشتملت على كثير من بلاغات العرب فى لغتها وأمثالها ومَنْ عرفها حق معرفتها استدل بها على فضل هذا الرجل وكثرة إطلاعه . سير أعلام النبلاء (٤٧٠٧) .

وقال من أحسن المقال :

والعَيْنُ تَعْرِفُ من عيني مُحَدِثُها إنْ كانَ مِن حزبها أو مِنْ أعَادِيْهَا

وأنا ما أقول هذا الكلام إلا من قول خير الأنام عليه أفضل التحيات وأكمل السلام : «الأرواح أجناد مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[1] . وإنما يقع التعارف من الجهتين والتناكر من الطرفين ، ولا تغالط نفسك وتكابر حسك أن يحبك من تكرهه ، ويزينك من تشوهه ، ويقربك من تقصيه ويقيمك من ترميه ، ويرفعك من تضعه ويأخذ بيدك من تدفعه ، كما قيل في الأقاويل :

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا ما لم يروا عنده آثار إحسان

واعلم أن أغلب الإخوان فى هذا الزمان مسلوب الإنسانية ، وإن كان فى زى الإنسان من أحسنت إليه أساء ومن ترفقت له قسا ، ومن نفعته ضرك ومن أمنته غرك ، ومن سكنت أوامه[2] بزلال فضلك جَرَّك ، وقد أفاد صاحب الإنشاد :

جَزَى اللَّهُ عنَّا الخَيرَ مَنْ لَيْس بيننَا ولا بَيْنَهُ ودّ ولا تَعَارف
قَاسَمنا خسفاً ولا شُفْنا أذى من النَّاس إلاَّ مِنْ نود ونألف

وإذا كان هذا فيمن تحسن إليه وتسبغ ملابس أفضالك عليه ، فكيف يكون حال من تضمر له النكال وتتمنى وقوعه في شرك العقال ، أنَّى تراه يصفو لك ويتقاضى سؤالك ومأمولك ، وهو مترقب غيلة غولك[3] ، متوقع منك أن يصير مقتولك ، فماذا عسي أن تبلغ منه سؤالك ومسؤلك ، أو ترى من محبته ومودته مأمولك ومحصولك .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم : كتاب الأدب ، باب الأرواح جنوده مجندة (١٥٥ ، ١٥٦) .
(٢) ألم الرأس .
(٣) مقتل وهلاك .

وإنما أوردت هذه المقامات وإن كانت من فضلات علمك ، ورشحات قلمك أتتنا متقدمات ؛ إلا لتعاطي أسباب الصلح أولا في نفسك ثم تستعمل الوسائط فيه من أبناء جنسك ، فينتج المقصود ويصفو الوِرْد المورود كما قيل:

فَإنَّ القُلوبَ مَرائي الصِفَات كَمَا السَّيفُ مِرآة وَجْهِ الذَوَات

قال الدب : أنا ألقى فى هذا المقام لنيل هذا المرام إلي يد تدبيرك، واكتفي فى وعى رياضه برائد رأيك وتقديرك ، فإن فكرك نجيب وسهم أسك مصيب ، فافعل ما تختار وأذقنا من رائق رأيك المشتار[1] .

فقال : تقسم أولا باللطيف الخبير إنك أصفيت الضمير من الغش والتكدير ، وكرعت من وارد الصفاء الزلال النمير[2] ، ونَفَضْتَ يد المحبة والإخاء من علاقات البغضاء والشحناء حتى يجيب دَعْيى ولا يخيب سعى ، وأبذل مجهودى فى نيل مقصودى ، وأبنى على أساس وأسلك مع الناس مسلك الناس ، فبادر باليمين إلى اليمين وأشهد عليه الكرام الكاتبين ؛ أنه صقل مرآة محبته عن صدأ المداهنة ، وجلا طريق مودته من غبار المباينة ، وإنه يكتفى من غدير الغدر بما جرى ويطوى حديث الشحناء فلا سمع الواشى بذاك ولا درى ، فليبذل مبارك الميلاد جهده فى السعى فى إصلاح الفساد ، وعقدا على ذلك العهد .

وتوجه مبارك الميلاد من بعد ، وقصد منزل أخى نهشل فرآه فيمن ثار همومه فى مشغل ، وقد غرق فى بحر الأفكار هائما لا يقر له قرار ، فسلم عليه وتقدم بالسؤال عن حاله إليه وآنسه بالمحادثة وذكر له الدهر وحوادثه ، وتذاكر ما وقع من الدب ، وكيف أظهر نواقض الحب وبارز بالعداوة وأبرز

---

(١) القاطع .

(٢) العذب .

بأدنى حركة موجبات القساوة . ثم أخذ أخو نهشل فى العتاب وفتح لمبارك الميلاد من جهة صاحبه وعتابه الباب ، فاعترف عن صاحبه بأن الظلم فى جانبه ، وأنه كان حاصل له من الوهم الكاذب ما أورثه الوقيعة فى جانب الصاحب ، وإنه ندم على ذلك واعترف بأن فعله حالك ، ولم يسعه إلا الاعتذار وجبر ما وقع لأبى نوفل من الانكسار ، بالسعى فى مساعدته والقيام معه فى جماعته ، والتوجه إلى حضرة المخدوم ، والتلافى بمرهم التصافى ما سبق من جراحات الكلام والكلوم[1] .

ثم إذا حصل من الخواطر الشريفة الإغضاء ، وأثمر فى رياض العفو لجانى الخَدَم فواكه الرضاء ، يستأنف شوق المحبة عقود المبايعة ، وبروح تاجر الصداقة على مشترى الحشمة فى مظان رغباتهم بضائعه إلى أن يتزايد الوداد ويتأكد بين الجميع عالم الاتحاد ، فانهض يا رئيس الأصحاب وأنيس الأحباب :

فَالعُمْرُ أَقْصَرُ مُدَّةً مِنْ أَنْ يُنَغَّصَ بالعِتَابِ

ثم نهضا جميعاً وأتيا أبا نوفل سريعاً ، فوجداه فى أحرج مكان وأوهم زمان محفوفاً بالأحزان مكنوفاً بالأشجان ، وما حال من جفاه أحباه وأقصاه مولاه وصار وهو جانٍ غريمه السلطان . فلما سلما عليه وجلسا إليه ، واعتذر مبارك الميلاد بعد إظهار تباشير الوداد أن موجب تقصيره فى السؤال عنه وتأخيره أن قلبه الوامق[2] وطرفه الوادق[3] لم يطاوعا على رؤيته فى تلك الحال ، ولا سمحت قدمه بالتقدم إليه وهو مشغول البال ، ثم تفاوضا فى أسباب الصلح وقصد أبواب النجح ، فتجاذبوا أطراف الطرائف وتفكهوا على

---

(١) الجروح .
(٢) المحب .
(٣) كثير الدمع .

موائد التحف واللطائف ، ومازالوا ينسجون خلع الوفاق ، ويمزقون شقق الشقاق إلى أن أنعقدت أهداب المحبة والوداد ، وانحلت عقود الحقود والكباد[1]، وتحقق كل أحد من كبير وصغير ومأمور وأمير وجليل وحقير بحصول المودة بين النديم والوزير :

ولمَا أنْ تَراءى الفَجْرُ يَحْكِى جبينَ الحُبّ وَرَأى اللبيب

توجه الوزير ومبارك الميلاد وأخونهشل ورؤس الأجناد مع سائر الأمراء والوزراء والأعيان والكبراء ، حتى انتهوا إلى السدة العلية والحضرة الملكية السلطانية ، فقبلوا أرض الطاعة ووقفوا فى مواقف الشفاعة ، ونشروا من الدعاء والثناء ما يليق بجناب الملوك والعظماء ، وذكروا النديم أبا نوفل بما يستعطف به الخاطر المفضل ، حتى عطفت عليه مراحمه وانمحت من جريدة الانتقام جرائمه ، وسمح بإحضاره لديه ليسبل ذيل الكرم والعفو عليه ، ثم يشمله ثوب الرضا وخلع العفو عما مضى .

فأسرع نحوه البشير بما اتفق من الجماعة مع الوزير ، ثم وصل القاصد وهُوَ لَهُ مراصد ، فتوجه منشرح البال منبسط الآمال ، حتى دخل على حضرة ذى الدولة والإقبال ، وقبل الجدالة[2] ووقف فى موقف الخجالة لا يرفع طرفاً ولا ينطق حرفاً ، فرسم بالتشريف والخلع ؛ ليرفع عنه التخويف والهلع ، فتضاعفت الأدعية الصالحة والأثنية الفاتحة :

بغَادِيةٍ مِنْ ذِكْرِهِ قَدْ تمسكت بطَيب ثَنَاء يحيى الزَمَان وَرَائِحِه

وأقيمت حرمته واستمرت عليه وظيفته . ثم إن الملك إنتقل من المجلس الغاص إلى مجلس خاص ، واجتمع بالخواص وعم الخطاب لكل ناص ومحدث وقاص .

---

(١) المشقة والشدة .

(٢) الجدالة : ذو الخلق الحسن .

فقال : ليعلم الوزير والنائب والأمير والحاجب ، والصديق والصاحب ، والجندى والكاتب ، والمباشر والحاسب ، والراجل والراكب ، والآتى والذاهب، وليبلغ الشاهد الغائب ، إن مقتضى الرياسة فى الشرع والسياسة على ما قدره حكماء الملوك وسلكوا بعباد الله تعالى أحسن السلوك ، إن كل واحد من الغنى والصعلوك ؛ لاسيما من له من الأمر شىء أو نوع مباشرة على ميت أو حى له مقام معين لا يزايله ، ومكان مبين لا يقابله قال الحى القيوم ذو الملك الديموم حكاية عن متصرفى ملك الديموم ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات :١٦٤] . وعلى هذا جرت سنته وورد كلامه وعلت كلمته وبه أمر الشرع .

والإنسان مُدَنًّى بالطبع ، فالواجب على كل من أقامه الله فى خدمة ملك ولاَّه أو سلطان عـلاَّه : أن يلزم مقامه ويلاحظ فى صف جماعته إمامه ، ويراقب ما يصدر عنه ، فقد قيل : إياك وما يعتذر منه . فإذا رام أن يتكلم بكلام يحضره الإمام أو بحضور أحد من الخواص والعوام ، يسير كلامه أولاً بمسبار التفكير ، ويعيره بمعيار التأمل والتبصر ، ثم يسبكه فى بوتقة الفصاحة، ويسكبه فى قالب الملاحة ، ويصوغه بآلات حسن الانسجام ، ويرصعه بجواهر مقتضى المقا ، فإذا صيغ على هذه الصياغة وقعدت على سبكه نقوش البلاغة ، وأخرج له غواص الفكر من بحر المعانى والبيان فرائد أفكار لم تظفر بها أصداف الآذان ، وخرائد[1] أبكار لم تفترعها فحول الأذهان ، إزدانت بها من حور جنان الجنات ومقصورات خيام الدهور والأزمان آنسات لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فاختلب ببهائه القلوب والأرواح ، واستلب بروائه الأموال والأشباح ، واستمال الخواطر وسحب الأيادى المواطر[2] وصار له الدهر من بعض رواته وأشناف ما يرويه عنه

---

(١) أى جديدة لم يسبقه إليها أحد .

(٢) الممطرة بالخير ، الكريمة .

معلقة بآذان نياته ، وإن وقع والعياذ بالله منه ما يورث الندم والحزن ، وأخرج سهم الكلام من قوس العجلة لا اكتال ولا اتزن ، حصل فى سوق ظاهره وباطنه الغبن[1] والغين ، وأصابه ما أصاب نديم فغفور الختن ، فتنهض الجماعة وللأرض قبلوا وعن كيفية هذا الخير سألوا .

[٣٩] **فقال الملك** : ذكر المخبرون وأخبر المذكرون أنه فى قديم الزمن كان عند فغفور الختن ، ندمان كامل المعانى فى البيان ، ذو نعمة جزيلة وصورة جميلة وفضائل فضيلة ، مبرز فى العلم كامل المودة والحلم ، محبوب الصورة مشكور السيرة طاهر السريرة ، ثقيل الرأس خفيف الروح والحواس ، قد جال وجاب وبلا الأعداء والأصحاب ، وترشح لمنادمة الملوك والأمراء ، ومجالسة السلاطين والوزراء ، وهو خصيص بملك الختن والصين ، مقبول عند الملوك والسلاطين ، اتفق له فى بعض الليالى أنه كان عند جناب ملكه العالى ، وعنده جماعة من العلماء وطائفة من الأخصاء والندماء ، وهم يتعاطون كؤس اللطائف ، ويتواطؤن على ما فى الدنيا من طرف وطرائف ، ويتذكرون عجائب الأقطار ويشنفون المسامع بخصائص الأمصار .

فقال النديم : رأيت فى بعض الأقاليم من الأراضى الحامية والبلاد القاصية حيواناً كبيراً سريع السير ، متردداً شكله بين شكلى الجمل والطير يضرب به فى الدبدبة المثل فيتعاطى التعلل فى الكسل ، إن قيل له احمل يقول أنا طير ، وإن قيل له طر يقول أنا جمل ، وذكر أن اسمه النعام وسائر أوصافه وأعضائه على التمام .

فتعجب الحاضرون من هذه الصفات والأشكال البديعة والهيآت ، ثم

---

(١) الغيظ .

قال: وأعجب من هذه الصفات أن هذه الدابة تأكل الجمرات وتلتقط الحصيات، وتختطف الحديدة المحماة من النار تزدردها ولا يتألم لذلك فمها ولا جسدها ، وتذيب كل ذلك معدتها ولا يتأثر بها لسانها ولا ترقوتها ، فأنكر بعض الحاضرين هذا المقال لكونه لم يشاهد هذه الأحوال ، ولا رأى ولا سمع خبر طير يأكل النار ويبلع الأحجار ، ونسبوه إلى المخارقة فى الأخبار ، فتصدى لإثبات ما يقول بطريقى المنقول والمعقول ، فلم يسعف كلامه القبول على ما ألفته منهم العقول ؛ لأن الحيوانات بل وسائر الجمادات إذا اتصلت بها النار محت منها الآثار ، وهذا طير من الأطيار من لحم ودم فكيف لا تحرقه النار فاتفق الجمهور على تكذيب هذه الأخبار ، وقالوا المثل المشهور إنما هو موضوع على كل لسان الطيور فيمن تردد بين الأمور فيقال : الفقير كالنعامة لا يحمل ولا يطير . ومثل هذا المضرب يا شيخ المشرق والمغرب قولهم : طارت به عنقاء مغرب[1] .

فقال النديم الفاضل الحكيم : أنا رأيت هذا بالعين فلم يزدهم إلا تأكيد المَيْن . وقالوا قد غلطت ولزمت الغلط . فوقع من أعينهم بهذا الكلام إذ قالوا: هذا كذب وسقط .

فحصل لذلك النديم من الخجالة والندم أمر عظيم ، واستمر فى حَصْر[2] حتى منعه السلطان من الدخول إلى القصر ، وصار بين الأصحاب يشار إليه بيا كذاب . فلم يسع ذلك الأستاذ إلا السفر من تلك البلاد والتوجه إلى العراق وبغداد وأخذ من طير النعام عدة واستعمل عليها رجالا مستعدة ، ونقلها إلى الصين فى عدة سنين تارة فى البحر وأخرى فى البر ، وقاسى أنواعاً من البؤس والضر ، وتكلف حملا من الأموال وتحمل مع المشاق مِنَن

---

(١) مثل يضرب للهلاك .
(٢) مَنْع .

الرجال[1] ، فما انتهى به السير ، إلا وقد مات غالب تلك الطير فوصل إلى حضرة ملك الخطا ، واشتهر فى المملكة أن النديم الفلانى أتى ، فاجتمع الناس لينظروا وأمر الملك للخاص والعام فحضروا وأحضروا النعام ، فى ذلك المحفل العام ، وطرح لها الحديد المحمى فخطفته والجمر والحصى فالتقفته ، فتعجب الناس لذلك وسبحوا الله مالك الممالك ، وعلم الصغار والكبار إنه يخلق ما يشاء ويختار ، فشمله الملك بمزيد الإنعام واعتذروا إليه عما مضى من ملام ، وزادت رفعته ونفذت كلمته إذ قد أثبت مدعاه ، وحقق بشاهد الحس معنى ما ادعاه ففى بعض الأوقات تذاكروا ما فات ، وانجر بهم الكلام إلى ما مر من حديث النعام .

فقال النديم : أيها الملك الكريم إنى تكلفت على هذه الأطيار كذا وكذا ألف دينار ، وقاسيت من المشقة فى الأسفار وعاينت من شدائد الأخطار ما لا تقاسيه عيدان النار ، واستمريت فى هذا العذاب الأليم المهين ، وفى سجن المشاق بضع سنين ، حتى بلغت تحقيق مرامى وتصديق كلامى ، ولولا عناية مولانا السلطان لما ساعدنى على مقصودى الزمان ولما زال عنى اسم الكذاب إلى يوم الحساب .

فتبسم السلطان وقال : لقد أتيت بمحاسن وما قصرت ولكن كما يحتاج فى إثبات تصديقها ، والخروج عن عهدة تحقيقها إلى صرف المال الجزيل، وتجشم مشقة السفر العريض الطويل ، وتحمل منن الرجال وركوب الأخطار والأهوال ، وإزعاج الروح والبدن وإضاعة جانب كبير من العمر والزمن، لأى معنى يتفوه بها العاقل ولماذا ينطق بها مستمع أو ناقل .

وإنما أوردت هذا المقول ؛ ليعلم أرباب المعقول ، من جلساء الملوك والعظماء ورؤساء الأمراء والزعماء ، خصوصا خواص القدماء وعوام الندماء ، إن شيئاً يحتاج فيه إلى تعب النفس وقيد ونكال وحبس ، ثم استعمال منن جماعة وأصحاب يتقدمون إلى الشفاعة ، لا ينبغى للعاقل أن يحوم حوله ولا يعقد أبدا عليه فعله وقوله .

---

(١) قوى الرجال .

فتقدم مبارك الميلاد وبذل فى أداء وظائف الدعاء الاجتهاد وقال : إنما كان عاقبة هذا الأمر وإطفاء نائرة هذا الجمر وأداؤه إلى انتظام عقود السعد ، واشتماله على جمع الخواطر من بعد بميامن الخواطر الشريفة وشرف ملاحظتها المنيفة ، وتوجه مساعدتها لخدمها وشمول عواطفها على عبيدها وحشمها ، وإقبال طالعها السعيد ولولا ذلك لما انتظم لنا شمل أيها العبيد، فالمنة فى هذا كله للصدقات الشريفة والجميلة لعواطف مننها المنيفة ونظير هذا الشأن ما جرى للخارج على الملك أنوشروان فسأل الملك المطاع عن هذا المضاع .

[٤٠] **فقال** : ذكر أهل التاريخ بأعالى الشماريخ ، أن كسرى أنوشروان جاهره أحد الملوك بالعصيان ، وانتدب لمحاربته طائفة من الأعوان فتوجه كسرى إليه ووثب وثوب الأسد الضارى عليه ، ورأى التوانى فى أمره والتأخير من جملة الاخلال والتقصير ، فقابله قاتلا وقاتله قائلاً :

إذَا اسْتَحقَرْتَ أدْنَى مَنْ تُعَادِى ... بمَالَكَ مِنْ يَدٍ ونَدَى وطَاقَةِ
فَمَا اسْتَحْقَرْتَ إنْ أهْمَلْتَ إلا ... أمُورَك وهُو ذا عينُ الحَمَاقَةِ

فلما تواقفا واصطدما وتثاقفا ، انكسر ذو الطغيان وانتصر أنوشروان وقبض على العدو وحصل الأمان والهدو وقص طائره وتفرقت عساكره ، وحمل وقد سيم خسفا وكسرا إلى الملك العادل كسرى ، فتقدم بالإحسان إليه وجعل العفو شكراً لقدرته عليه ، وبالغ معه فى اللطف والإحسان وأنزله عنده فى بستان ترتع[1] النزاهة فى ميادين رياضه ، وتكرع[2] الفكاهة من رياحين حياضه ، وأفاض عليه من خلع الإنعام ، وإدرارات الفضل والإكرام ، ما أزال دهشته وأحال وحشته وأبدى استعباده ، وابعد استبعاده .

فلما حصل أنسه وهدأت نفسه أخذ فى تجيزه وابلاغه إلى مأمنه وتجهيزه فأبى إلا الإقامة ، والتلبث بدار الكرامة وسأل الصدقات ومالها من عميم الشفقات مجاورة محلها ، والإقامة تحت ظلها واغتنام مشاهدتها

---

(١) أقام وتنعم .
(٢) تمتد وتنتشر .

والتشرف بميامن طلعتها مدة أيام ، فإنها محسوبة من العمر العزيز بأعوام، فأجابت مسئولة واستنجزت مأمولة .

وكان فى ذلك البستان نخلة كنخلة مريم[1] قد يبست من الهرَم ولما تعاورتها يد القدم ، فلم تصلح إلا للضرم[2] ، فأرسل يسأل الصدقات الجزلة أن تهبه تلك النخلة ؛ فاستزل كسرى عقله وأجاب قصده وسؤله وهبه تلك النخلة . فكان كل يوم يتوجه إليها ويسند ظهره ويعتمد عليها ، وهو فى أرغد حال وأيمن مآل ، فبعد عدة شهور طلب إلى التوجه الدستور ، فاستدعاه وأكرم مثواه وأجاب قصده ومتمناه وأسبغ عليه نعمه وفضله وسأله عن موجب سؤاله النخلة وسبب طلبه الإقامة ثم سؤاله التوجه بالسلامة .

فقال : أما سبب الإقامة بهذا البلد ؛ فلجوار مولانا الملك الأمجد والاستسعاد بمشاهدة وجهه الأسعد ، فإن طالعه قوى سعيد ومجاورته للسعادة تفيد ويحمل منها لمجاورها المزيد ، فأردت أن يكون منها نصيب ويلاحظنى منها سهم مصيب :

فَإِنْ تَلَمَسَ بِقُفْرٍ عَادَ رَوْضَاً ... وَإِنْ تَمَرَرَ بِمِلْحٍ صَارَ شَهْدَاً

وَإِنْ يَخْطُرْ بِبالك نَحْسُ نجمٍ ... يَعُد فِى الحَالِ مِنْ رياكِ سَعْدَا

فصرت مشمولا بميامن ظلها مغمور بفائض وابلها وطلها[3] . وأما طلبى النخلة اليابسة فإنى تفاءلت بها من حظى مساعدة ومناحسة ، فكنت أتردد إليها وأعول فى ذلك عليها ، فمادامت فى قحول كان جدى وسعدى فى نحول ، إلى أن رأيتها قد خضرت واطلعت واستبكرت فأقبل سعدى وحيًا وعاد بعد أن مات حَيّاً ، وساقطت نخلة سعدى من ثمرات السعادة رطبا جنيا؛ فعلمت أن طالعى الهابط عاد إلى الأوج[4] ، ورسول حظى دخل فى دينه

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وهزى إليك بجزع النخلة﴾ [مريم:٢٥] .

(٢) الحطب يُرمى به فى النار .

(٣) أى لكثرتها وقلتها .

(٤) العلو والصعود .

ناس الإيناس فوجا بعد فوج ، وأرمل جدى ازْدَوَجَ ببكر الآمال وكان لها أحسن زوج ، كل ذلك أى أعظم مالك بسعد فالك وجوار دار جلالك ، ومشاهدة أنوار جمالك ، واستماع كلامك وانتجاع[1] كمالك ، فمن بعد إسعاد السعد كل سهم أمل فوقته ونحو شاكلة قصد أطلقته أصبت الغرض وحزت جوهره بلا عرض ، فإذا أسعف السعد النفس لايعيقها معه نحس .

وإنما أوردت هذا القول ياذا الكرامة والطَّوْل ؛ ليعلم الحضار والسادة النظار ؛ أن استقامتنا وإقبال سعدنا وانتظام أمورنا وجدنا ، إنما هو بالتفات الخواطر الشريفة ، وشمول أحوالنا بملاحظتها المنيفة ، واستدامة بركاتها وميامن حركاتها كما ، قيل فى ذا القبيل :

تَلْقَى الأَمَانَ عَلَى حِيَاض محمد ... تولاء مُخَرَفةٍ وَذَنْب أطلس
لا ذى تَخَاف وَلا لهذا جَرْأة ... تَهْدِى الرَّعيةَ ما استَقَامَ الرَيس

وكما أن الرعية لا يستقيم حالها إلا بالملك الراعى ، فإنها كالراعية لا ينتظم لها أمر إلا بالراعى كما قيل :

لا يُصلح النَّاسَ فَوْضَى سراة لَهَا ... ولا سراة إذَا جُهَالهم سَادوا

وكذلك الملك يا ذا الدرجات العلية لا يصير ملكاً إلا بالرعية ، ولو لم يكن العاشق مشوقاً لم يكن المعشوق معشوقاً بالأمل مسوقا لم يصر الملك المأمول مرموقاً ، وقد عنى هذا المعنى من فى رياض المعانى أعْنى

فيك يهدى سماؤه ... كأعظمهم إذ من هو التعظما
فلا تحتقره إن تملكت فيه ... ملكا مفخما
ففى موقف العشاق منك وظيفة ... لكل فلا يبغى لها منقدما
وجد يليق بحاله ... وكل له حال يوافيك مغرما
ألم تر أن الله أوجد حكمة ... وبرق وضيغما
وكل له نفع وضر مخصص ... فسبحان من قد خص طوراً وعمما

---

(١) الانتفاع منه .

تعالى لكمال قدرته وإسبال ذيل رحمته ، خلق الكبير الأعلى محتاجا لخدمة الصغير الأدنى ، وجعل الحقير الأدنى محتاجاً لرحمة الكبير الأعلى ، ولهذا أَعْظَمَ الخَلْقَ من خَلَقَ الخَلَقَ ، وأحوج الخلقَ إلى الخلقِ وهو غنى عن الخلق .

وقيل أيها الملك السنى : الإنسان بطبعه مدنى ، وبمقدار كثرة الرعية وأشتراكهم فى الصفات المرضية ، وانقيادهم لأوامر ملكهم السنية تصير درجة الملك عليه كما كان فى زمن نبى الله سليمان صلوات الله عليه وسلامه وتحيته وإكرامه ، ولقد جرى فى عصره بين الطيور مفاوضة بين اللقلق[1] والعصفور فسأل ملك الآساد عن تلك المفاوضة مبارك الميلاد .

[٤١] **فقال** : بلغنى يا سلطان الأسود أن نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام ؛ كان فى سيرانه مع خواص أركانه ، فمر بذلك الطلب على شجرة دلب[2] للقلق ، فيها عش قد بناه كأحسن حش[3] ، وقد استوكر فى عشه عصفور واحتمى بجواره من مؤذيات أبى مذعور[4] ، فكانا يتخاصمان ويتقاولان ويتواصمان ويتصاولان ، فوقف النبى الكريم ، واستوقف الجند العظيم ليسمع ما يقولان وينظر كيف يجولان ، فسمع اللقلق يقول وهو يجول ويصول ويخاطب العصفور بمجمع من الطيور : أشكر لى حسن الصنيع حيث أنزلتك فى حصنى المنيع ، لا حية ترقى إليك ولا جارح ينقض عليك ، ولولا أن لك عندى مناخاً ما أبقيت لك الحية ذاتا ولا فراخا ، وإنما سلمتم بجوارى وبقربكم من دارى .

---

(١) اللقلق : طائر طويل العنق والرجلين ، يأكل الحيّات ، ومشهور بالذكاء ، وكنيته أبو خديج .

(٢) دُلب : شجر كبير ينمو على شاطىء النهر .

(٣) بستان .

(٤) أبو مذعور : من كُنى الطيور الجارحة .

فوثب أبو محرز وتوسط الجمع وهو يجمز[1] ونادى بين الأطيار : أنسيت أبا خديج أى جار وأنا فى المدار حول هذه الديار آناء الليل وأطراف النهار ، ألقط النمل الكبار والصغار ، ولولا أنا حارس مناخك ما أبقى لك النمل أثرا ولا لفراخك ، فكل منا محتاج إلى جاره مغتبط بجواره آمن به فى سربه ومطاره ، فارفع من بيننا هذا النكد ولا يمن منا أحد ، فالحقوق ما تضيع بين الجيران كما تراعى بين الأصحاب والإخوان ، وكما تدين تدان. ومع هذا فكلنا نصلى على نبى الله سليمان ملك الإنس والجان وسلطان الطيور وسائر الحيوان ، فإنه بحسن عدله اعتدل الزمان ، وبيمن فضله صلح الكائن والمكان ، ونحن أيضاً كذلك نشكر الله رب الممالك إذ مَنَّ علينا بهذا السلطان المالك ملك الوحوش الأكابر وكاسر السباع الكواسر ، المشفق على الضعفاء والأصاغر ، فلم يخل من فضله له سبع ولا طائر . ثم نهضوا فوقفوا ودعوا الملك وانصرفوا

هذا آخر الباب والله أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

---

(١) يستهزىء .